سناپ شوتس

لقطات سريعة وشخصيات حية

علي عمر

سـناپ شـوتس
المؤلف : علي عمر

تصميم الغلاف : حنان الأزلي

الطبعة الأولي : يناير 2017
رقم الإيداع : 1535 / 2016
الترقيم الدولي : 978-977-769-173-4

جميع حقوق الطبع محفوظه
الناشر: أوراق للنشر والتوزيع
awraaq@live.com
القاهرة – 2 شارع شريف
– الدور الخامس – مكتب 57
م : 01010490247
ت : (02)23963002

إهداء :

ربما التقت وجوهناً يوماً، ربما تحدثنا ساعتها أو لم نفعل، ولكني لا أزال أفكر فيك، وأراك أمامي ومعي بين تلك السطور.....

ـ طلب الصداقة ـ

مضت سنوات وسنوات، بَحث عنها، طَرق جميع الأبواب فلم يجبه أحد فانصهر في عالمه الجديد، تاركاً وراءه من تعلم الحب على يديها، وحلقت روحه في سماء محرابها، عشر سنوات كاملة قد مضت، كانت فيها الغائبة الحاضرة، وجاءت صورة صاحبة «طلب الصداقة» لينتفض قلبه في ثوان، وتُطوى السنين كأنها لم تمض، أجل إنها هي، حبه الأبدي!

-طلب الصداقة-

فها هو الحب يعرف طريقه إلى قلب ابن الخامسة عشر، أجل ولم لا؟ فالحب لا يعرف عمراً، ولا يعترف أبداً بقيود!

وقف في شرفة غرفته، وكأنما يقاوم صراعاً عنيفا يهز كيانه، أطفأ مصباح الغرفة ليخفي نفسه عن الجميع، لم يصمد كثيراً وقد عرفت العبرات طريقها بسهولة إلى وجنتيه، انتفض حين سمع باب غرفته يُطرق، حاول مسرعاً إخفاء دموعه، دخل الغرفة شاب في منتصف العشرينيات، وكأن القدر اختاره دون غيره ليشارك «أحمد» تلك الليلة، كان «أسامة» الخال الأصغر لأحمد، لم يكن فارق السن كبيرًا بينهما، مما شجع أحمد على أن يبوح لأسامة بسره منذ البداية.

أسامة: إنت فين يا معلم؟ ومالك طافي النور كده ليه؟

أحمد (بصوت لا يكاد يسمع): مفيش حاجة!

أسامة: مال صوتك؟ في إيه؟! حصل حاجة في موضوع «ياسمين»؟!

أحمد: «ياسمين» هتسافر مع أبوها وعيلتها الأسبوع الجاي!

أسامة: هتسافر فين؟

أحمد: العريش!

أسامة: والمدرسة؟ طب.. إنت كلمتها زي ما قولت لك؟!

أحمد: أبوها نقلها من المدرسة، وحاسس إنها مبسوطة بفكرة السفر للعريش!

أسامة: كلمتها؟

أحمد بانفعال: لا يا أسامة! أقول لها إيه؟! أقول لها إني بحبها! مش عارف! خايف! ممكن تكون ما بتحبنيش أصلاً، (لحظه صمت ويكمل) من غير ما تريق عليه، أنا نفسي بس أقف معاها لوحدنا ولو مرة واحدة، وأقول لها إني بحبها ومش مهم أي حاجة تحصل بعد كده.. بس كل أما أشوفها وأحاول أتكلم معاها بتلخبط وقلبي بيدق، وببقى عايز أمشي بسرعة، أنا أول مرة أحس إني جبان!

أسامة يرد بصوت الواثق: أحمد.. ياسمين عارفة كل حاجة! ما فيش بنت ما بتحسش بحد بيحبها وبيهتم بيها!

اطمأن قلب ابن الخامسة عشر عند سماعه تلك الكلمات، وبات ليله وقد هدأت نفسه، فهي بلا شك تعرف قصته، وتعلم ما عجز لسانه عن الإفصاح عنه!

***

كان لجو الشتاء سحر خاص، عاد مسرعاً من عمله، وأنهى لتوه محادثة هاتفية لوالديه، أخبرهما أنه لن يستطيع السفر لزيارتهما هذا الأسبوع، هو يستمتع بقضاء عطلة نهاية الأسبوع وحده، في عالمه الخاص، متسكعاً بين

شوارع القاهرة القديمة، تاركاً العنان لأحلامه وآمال مستقبله القريب، لم يكن يفكر في «ياسمين» منذ زمن، فلقد طرق جميع الأبواب بحثاً عنها وانخرط في عالمه الجديد تاركاً وراءه من تعلم الحب على يديها، وحلقت روحه في سماء محرابها!

انساب صوت «فيروز» الملائكي من حاسوبه، أخذ يرتشف القهوة ببطء كعادته، وجاءت صورة صاحبة «طلب الصداقة» لينتفض قلبه في ثوان وتُطوى السنين وكأنها لم تمض!

تسارعت نبضات قلبه وسابقت أصابعه عقله، وهو يكتب رسالته الأولى ومئات الأسئلة تتدافع في رأسه دون توقف،

أحمد: ياسمين؟! مش ممكن! إنتي فين؟

وقبل أن تجيب، تابع الكتابة:

أحمد : إنتي عرفتي توصلي لي إزاي؟!

ياسمين: إزيك يا أحمد؟!

كانت هذه أول رسالة تصله منها، وكأن حاضر اليوم هو ماضي الأمس، أحس أنه لم يَعش وحيداً أبداً، لقد كانت معه طوال الطريق، كانت غائبته الحاضرة، لقد صدق «أسامة» هي إذن تعرف منذ البداية، وهي بلا شك كانت تبحث عنه طوال هذه السنوات.

استلقى على سريره ولم تُغمض له عين في تلك الليلة، ظل محلقاً ينظر إلى سقف غرفته الصغيرة، ولا يفكر في شيء إلا في «يوم الاثنين» القادم حيث سيلتقي بها!

***

كان الارتباك واضحاً عليه، وصل قبل الموعد بنصف ساعة، حاول جاهداً ألا تبدو عليه أي علامة للقلق!!

وقعت عيناه عليها، ولا يدري ما حدث له بعدها، شعور غريب قد اعتراه، شيء ما مختلف يحدث الآن ولا يستطيع تفسيره أو السيطرة عليه! علم منها أنها تعمل الآن مدرسة بإحدى المدارس الخاصة، وأنها كانت مخطوبة لأحد أقاربها ولكن لم تكتمل تلك الخطبة، راوده شعور بالفتور لا يعرف سره، شيء ما اختلف، أحس بمشاعر هي أقرب لمشاعر القرابة من مشاعر الحب، شعر كمن يجلس مع إحدى قريباته وليس مع حبيبة طفولته، مع من انتظر لقاءها لسنوات، غاب سحر اللقاء وبقيت الأفكار والتساؤلات تصارع نفسه وعقله، هل أعملت السنين مفعولها فلم يعد يراها كما كان يراها من قبل؟! كره هذا الشعور أو مجرد التفكير فيه! أم أننا نصبغ بأيدينا الكمال على من نحب؟! أترانا نرسم كل جميل ونضفيه على من نحب؟! أم أن لكل ما هو بعيد عنا سحراً قد يتلاشى باقترابنا منه؟! لقد تمنى أن تبقى كما أرادها هو، حبيبة الطفولة وساحرة حياته!

ـ تفاصيل ـ

ربما تكون الحياة أسهل بكثير مما نعتقد...

تفاصيل

على أحد المقاهي المنتشرة حول الميناء جَلستُ بجوار طاولته، أحتسي ببطء فنجانًا من القهوة، وأملأ صدري بهواء أوروبا النقي، كنت كغيري أنظر إلى المارة في ذلك المزيج من جنسيات شتى، وانتبهت على صوته يحدثني:

– مقبولة!

– معذرة سيدي؟

نظر إلى إحدي الفتيات وهو يكمل: ليست بالفاتنة ولكنها مقبولة.

علا ضحكي ساعتها، فلم أكن أتخيل أنه يقصد الفتاة، وزاد من عجبي ما بدا عليه من العمر، فربما تجاوز السبعين عاماً، كان متأنقاً في ثيابه، يبدو وكأنه قد عاد لتوه من إحدى حفلات الزفاف، يبدو أنه ذو ذوق ومزاج خاص في كل شيء!

تعرفت عليه في ذلك اليوم ومضينا نثرثر في موضوعات شتى، يقطعها تقييمه المستمر لكل حسناء تمر أمامنا!

لم يكن يتحدث الإنجليزية بطلاقة، وكثيراً ما كان يمزج الكلمات بلغات

أخرى لا أفهمها، فنمضي بعض الوقت ليشرح معنى تلك الكلمات، ثم سألني أن أشاركه التقييم وحاول إقناعي بأنه من الضروري أن أتعلم كيف يكون إجماع الذوق، وكيف يكون كمال الجمال في طبيعته من غير تكلف ومن دون مبالغة!

عرضت عليه أن أصطحبه في طريق عودتي إلى الفندق ولكنه رفض، وسألني إذا كان في إمكاني مقابلته غداً في أحد متنزهات المدينة؟ فوافقت على الفور، وقابلته في اليوم التالي:

– لماذا اخترت ذلك المتنزه بعينه؟

– ذلك المكان يقصده الجميع، هو أجمل متنزه في أوروبا، ثم ضحك وهو يكمل: سترى في هذا المكان من الحسناوات ما لم تره من قبل!

كنت أستمتع بصحبته، فالتجربة جديدة ومشوقة، تتعرف فيها بشخص غريب من سكان البلد الأصليين، وتحيا حياة «أهل البلد» بكل ما فيها، ولا أنكر أيضاً أن موضوع حديثنا عن شقراوات أوروبا قد لقي هوًى في نفسي.

كنت أتحدث إليه وكأنه صديق أعرفه منذ سنين، صديق في مثل عمري، كان خفيف الظل فأمضينا الوقت نسرد النكات ونتجادل حول الجمال ومعناه، وأدركت ساعتها أن روحه قد طوت السنين وتركت قلب شاب يسكن ذلك الجسد المتغير.

سألته عن حياته وعمله فلم يعطني الكثير من التفاصيل فاحترمت رغبته ولم أُلح عليه في السؤال.

في صباح اليوم التالي كنت أتسكع بأنحاء المدينة حين توقفت أمام إحدى البنايات رائعة الجمال، كان مبنى للعلوم يحوي بين جنباته الكثير من قصص العلم والعلماء، فتوقفت أمام نوافذه الزجاجية الملصق عليها منشورات تحوي معلومات حول المكان وأسماء علماء ممن أسهموا وأضافوا للعلم وللبشرية.

انتبهت حين وقعت عيني على اسم ليس بالغريب علي! لا، لا بد أنه تشابه في الأسماء، لا يمكن أن يكون هو نفس الشخص، ذلك الرجل الذي ألقاه منذ يومين، لا يمكن، لقد تحدثت إليه بأتفه الأشياء وشاركته النكات والحديث عن الحسناوات وعن منطق الجمال، لقد انتقدت ذوقه وسَخرت ممَن فُتَن بهن، أمسكت بهاتفي المحمول وبدأت أبحث عن اسمه وصورة له، فجاءت النتيجة لتخبر أنه هو، نفس الشخص ذو السبعين عاماً، ذلك العَالم الجالس هناك!

كنت قد وعدته بأن ألقاه غداً لتناول القهوة حول الميناء حيث جلسنا هناك في اليوم الأول للقائنا:

- لقد طلبت إليك قهوتك! لا أدري كيف تتذوق كل تلك المرارة؟!

- سيدي! لم لم تُخبرني من قبل؟ لقد أسأت في حديثي معك! واستطردت: لقد تمنيت أن أقابل شخصًا في مثل علمك، وتابعت أكمل حتى قاطعني وقد تغير وجهه عند سماعه كلماتي:

- انظر، كنت أريد أن تعاملني بحرية، بطبيعتك دون قيود، من دون تنميق لكلماتك، وهو ما كان، أما الآن فلا، ثم سكت ومرت لحظة طويلة

ثم أكمل:

- معذرة.. علي أن أنصرف الآن!

أصر أن يدفع فاتورة الحساب، كانت لحظات أخرى طويلة إلى أن أحضرت النادلة فاتورة الحساب، انصرف هكذا ببساطة! ترك الجلسة وانصرف، وهو يودعني كانت الابتسامة لا تزال تعلو وجهه!

هكذا كان هو آخر لقاء!

ـ الطائرة ـ

أحب السفر
وأعشق الحديث مع المسافرين

ـ الطائرة ـ

لم أربط حزام مقعدي بعد، كنت أنتظر المسافر الذي سيجلس بجواري في الطائرة، أحمل في يدي كتابًا وهاتفًا محمولًا عليه عدد لا بأس به من الأغاني، وما هي إلا دقيقة واحدة حتى تقدمت فتاة في أواخر العشرينيات، لفتت نظر الجميع منذ أن دخلت الطائرة، كانت حقاً جميلة من دون مبالغة، لكنتها المميزة وهي تتحدث مع مضيفة الطائرة، وشعرها الأسود، ورشاقة قوامها تشير إلى أنها قد تكون من إحدى دول أمريكا الجنوبية، أدركت أن هناك كثيرين يتمنون الجلوس في مقعدي، كان ذلك واضحًا من ابتسامات ونظرات مسافرين جلسا في المقعدين المقابلين لمقعدي، وضعت سماعة أذني لأستمع إلى بعض الأغاني غير أنها بادرتني:

- رحلة عمل أم سياحة؟
- سياحة .. وأنت؟
- سياحة أيضاً؟

تسرعت لأسأل: هل أنت من أمريكا الجنوبية؟!

ضحكت، ثم قالت :

- وهل يبدو علي أني من أمريكا الجنوبية؟

ابتسمت وأجبت:

- نعم من وجهة نظري.

أنا من نيويورك، ولكن لي أصول مكسيكية! الجميع يعتقد هذا! وأنت؟

- مصر.

- الأهرامات!؟

- هل قُمتِ بزيارة مصر من قبل؟

- لا .. ولكن يومًا ما سأفعل، لقد تعلمت بعض الكلمات العربية.

- حقاً؟!

- «صباح الخخير» .. «مساء الخخير».

- الخير!

- «الخخير» .. «حبيبي» .. «حبيبتي».

ثم أتبعت وهي تضحك:

- «أخخت شر... طة» .. «أخخت وس....ـة».

قاطعتها وطلبت منها أن تخفض صوتها، نسيت لوهلة أن معظم مَن في الطائرة لا يفهمون العربية ، ثم تابعت:

- هل تعلمين معنى تلك الكلمات؟ إنها شتائم ولا يصح النطق بها على الملأ.

- أعلم هذا .. ولقد تعلمتها خصيصاً من أجل إنسانة بعينها!

وبدأت تحكي قصتها:

تذكرت ساعتها فيلم « **French kiss** » للساحرة ميج ريان، شاهدت هذا الفيلم قديماً ولا أزال أذكر الكثير من أحداثه، بل إني أعرف عن نفسي شرودي الدائم أترك فيه العنان لنفسي لتحلق بعيداً في عالمي الخاص، أربط بين الأحداث والأشخاص، وأنظر من هناك، من سمائي التي آوي إليها بين الحين والآخر، ذهبت أستعيد أحداث الفيلم سريعاً، على العموم لا أعتقد أن «ميج رايان» كانت ستنطق بتلك الشتائم مع مسافرها الغريب!

قالت: منذ خمس سنوات، تعرفت إلى شاب أميريكي من أصل سوري، وتطورت العلاقة بيننا حتى أحببته، تعلم حينما أقول إني أحببته ماذا تعني هذه الكلمة بالنسبة لي؟ تعني ببساطة كل شيء، (لحظة صمت) عشنا سوياً ثلاث سنوات كانت أجمل الأيام، كُنت كل شيء في حياته، وكان هو الحياة بالنسبة لي، وتعلق كل واحد منا بالآخر، حتى قررنا أن نتزوج ونُكّون أسرتنا الصغيرة، ومن هنا بدأت مأساتي .

سافرت إلى سوريا لزيارة عائلته والتعرف إلى أمه وأخواته، سارت الأمور على ما يرام، حتى صرح هو لأمه برغبته في الزواج بي، وكانت تلك النقطة الفاصلة، أمضيت عامين لا أفعل شيئا سوى البكاء، كنت أبكي طول الوقت من دون توقف .. كنت أبكي كل شيء!

رفضت أمه فكرة زواج ابنها من «مسيحية» وهو مسلم، هي تريد أن تُزوج ابنها بفتاة مسلمة، وأنا لا أقبل أن أُغير ديانتي، ما لأمه وديني؟ إن ديني شيء يخصني وحدي، حتى هو ليس له الحق في أن أُغير ديني!

وشيء آخر كدت أُجَن بسببه، هو تلك الطاعة والاستسلام المطلق

لأمه، هو يرفض فكرة عصيانه لأمر أمه، اختار طاعة أمه على حبه لي! كان يقول: إنه يخاف أن يُغضب والدته، ولم يخف أن ينهار كل شيء بيننا، ظللت عاجزة عن فهم ذلك التسليم المطلق لأمه حتى أخبرني أحدهم أنه يفعل ذلك بسبب إسلامه.

مرت لحظة صمت كانت تنتظر مني أن أُعقب على قصتها، أحسست أني يجب أن أنطق بشيء، فقلت:

– أشعر بالأسف لسماع ما آلت اليه الأمور.

– لا عليك .. ثم اندفعت لأقول:

– أنا أتفق معك فيما يتعلق بتمسكك بدينك، فهذا حقك ويجب على الناس احترامه، بل يجب عليها أن يزيد ذلك التمسك من تقديرها لك! أما عن الحب فإن قلوبنا تحب، تستجيب لنداء داخلي وحالة تملأ كيانها دون أن تنظر إلى أي عقبات، وإني لا أعتقد أن طاعته لأمه تعود إلى الدين في الأساس، بل تعود إلى أصل تربوي واجتماعي في المجتمعات الشرقية، ثم يأتي الجانب الديني بعد ذلك!

– على العموم .. لقد انتهى كل شيء!

– لم تخبريني بقصة الشتائم؟!

انفجرت من الضحك ثم أتبعت:

– حين قررت أن أُنهي العلاقة تعلمت تلك الشتائم ثم سافرت لأقابل أمه وأنهيت مهمتي معها، أفرغت شحنة غضب سنتين في وجهها ثم عدت ثانية إلى نيويورك لأبدأ حياتي من جديد!

مضت دقائق صمت طويلة دون حديث، كنت خلالها أفكر في أشياء كثيرة، ثم أتبعت هي:

- لقد لفت نظري وأنت تمر في صالة الانتظار، حسبتك أحد المشهورين، خاصة وأنت ترتدي نظارتك الشمسية، إنك تشبه .. تشبه .. مارك أنتوني، هل قال لك أحد هذا من قبل؟

- بارك الله فيك .. وفي مارك أنتوني!

علا ضحكها وقد اقترب موعد هبوط الطائرة، انتهي الحوار بيننا عند هذه النقطة، لم أكن على نفس الحالة التي كنت عليها قبل الحديث معها، لم أفكر في فيلم «**French Kiss**» بل كنت هناك ساعتها في عالمي الخاص أفكر في الحب، في الحياة، الأحلام .. وفي غايات الأشياء.

ـ دعوة عشاء ـ

تم نشر القصة بجريدة أخبار اليوم
عدد الجمعة 2016-11-25

ـ دعوة عشاء ـ

لم لا تقبل دعوته للعشاء؟ هذا لن يكلفها شيئا، ستُبقي قلبها بعيداً وتجلس بعقلها فقط، أجل ستبقي مسافة لن يستطيع هو عبورها!

ـ دعوة عشاء ـ

أعجبها إصراره على التقرب إليها، حاول مراراً، هو لا ييأس أبداً، وهي تغلق جميع الأبواب، لقد قررت أن تُبقي قلبها بعيداً عن الحب، غير أن سؤالاً آخر كانت تخشاه بل تهرب بعقلها بعيداً عنه؟ كان السؤال: ولم لا؟!

لم لا تقبل دعوته للعشاء؟ هذا لن يكلفها شيئا، ستُبقي قلبها بعيداً وتجلس بعقلها فقط، أجل ستبقي مسافة لن يستطيع هو عبورها!

***

كانا رائعين، حاول مراراً كبح زمام نفسه، وعدم الإفصاح عن إعجابه بها، بل انجذابه الكامل لها، غير أنه كعادته أفشى كل شيء، إنها طبيعته الغالبة عليه، هو دائماً في سباق مع الزمن، يريد أن يختصر السنين في شهور بل في أيام إن أمكنه فعل ذلك! هي طبيعته وهو لن يتغير!

أخذت تقاوم بكل كيانها ذلك الشعور بالإعجاب، بل أبهرها شغفه بالحديث عن حلم حياته، لم تكن مهتمة بطبيعة حلمه، ولكن أعجبها شغفه وطموحه، إن شيئاً ما يدفعها للاستسلام، شيء ما يغمر كيانها،

خارت قواها واستسلمت، أجل استسلمت لمشاعرها الجديدة، هكذا كان لهذا اللقاء الأثر في تغيير مجرى حياتها!

***

مضت الأيام مسرعة، هي بحق أجمل أيام حياتها، علمها الحب أن تحب نفسها، أحست أن لها قيمة أكبر مما كانت تعتقد، أن قيمتها في احتياجه لها، لقد رأت في نفسها ما لم تره من قبل، شاركته حلمه، بل تبنت تحقيق الحلم، كان يمضي الساعات متحدثاً عن ذلك الحلم، حلمه في أن تسنح له الفرصة ويستجيب القدر وتُسمع موسيقاه الكون كله، درس الموسيقى، بل عشقها، وتمنى أن يُكوّن فرقته الخاصة ويطوف العالم ناشراً بألحانه السلام بين الشعوب، وهي كعادتها تتأمل ملامحه، الوجه الشغوف بالغد، غير أنها كانت تريد أن تملأ موسيقاه حياتها فقط، أو ربما أولاً، ثم تتسع للكون المحيط، إن شعوراً آخر كان يعتريها بين الحين والآخر، وهو الغيظ، أجل .. الغيظ، هو دائماً يتحدث عن حلمه، عن طموحه، عن حياته، وهي تريد أن تتحدث عنهما، وعن المستقبل القريب، تكرر هذا مراراً، خاصة في الشهور الماضية، مع اقتراب أول ظهور له في حفل موسيقي بدار الأوبرا، إن هناك اختلافاً بين نظرة كليهما للحياة، إن مشاعر المرأة أكثر نضوجاً من مشاعر الرجل، إنها حين تحب تختزل الكون كله في من تحب!!

***

لم تستطع إيقاف دموعها وهي تراه فوق خشبة المسرح، ها هو الحلم

يتحقق، حلمه في تلك الوقفة، وحلمها بأن تراه هناك، أحست أن اللحن ملكها وحدها، هو يعزف فقط لها! انسابت الدموع في بطء واختفي العالم بأسره وبقي هو ولحنه!!

إن شيئا ما يزلزل كيانها، صراع عميق بداخلها، مزيج من مشاعر عديدة لا تستطيع الفصل بينها، إنه الحب وقد اختلط مجدداً بالخوف!!

توجه مباشرة فور انتهاء معزوفته لتحية الفرقة، ودار بعينه باحثاً عن الشخصيات الإعلامية البارزة، هو يريد شخصًا يستطيع مساعدته لتحقيق خطواته التالية، إن طريق الشهرة والانتشار ليس بالأمر السهل، وأخيراً وجد أحدهم يقترب منه ليهنئه بأدائه البارع!!

هكذا ترك سارة بمفردها، ولم ينتبه لغيابه عنها إلا بعد ساعة كاملة! ترك من أعطت كل شيء وتركت كل شيء من أجله! كان يكفيها أن تكون هي أول من يلقاها، كان يكفيها نظرة منه تبادله فيها أحاديث قلبها، كان يكفيها أن يحتضنها بين ذراعيه، ولكن يبدو أنه انشغل بحلم جديد.

مرت الأيام بطيئة وطويلة، لم يتوقف عقلها عن التفكير، أرهقها السهر، نظرت مئات المرات إلى هاتفها، كانت تراقب ظهوره على «فيس بوك» وتقرأ تعليقات معجبيه مرات ومرات، أحست بغضب وسخط، شعور بالندم قد تملكها، هي من قبلت ذلك بإرادتها واستسلمت، تريد أن تُنهي تلك العلاقة، وأن تعود لحياتها السابقة في عالمها الخاص حيث تصبح هي المسيطرة والمالكة لزمام أمرها!!

هكذا كانت النهاية حيث قررت أن تُنهي تلك العلاقة، كان هو في

احتياج إلى شخص آخر معه يشاركه حلمه الأول، إن الطموح فقط هو ما يملأ كل حياته، ولكنه كان الحياة كلها بالنسبه لها، إنه ألم القلب وجرح المشاعر والتسليم المطلق للآخر، وهذا ما تخشاه ولا تريده لحياتها!

ـ لوحة الموزاييك ـ

هي تريد أن تحيا ولكن...

ـ لوحة الموزاييك ـ

كانت تقف تملأها الثقة، بدأت تمسك بالكمان وتعزف وسط تجمع من المقاهي بحي من أحياء مدينة السادس من أكتوبر، كان مشهدًا غريباً على مجتمعنا الشرقي، ربما أرادت أن تثبت شيئا ما بداخلها، كانت حقاً جميلة، علت وجهها ابتسامة زادتها جمالاً وإشراقاً، تُنبئ عيناها بالكثير من العناد، لا يبدو عليها الحاجة، بل إن علامات الترف والثراء تبدو واضحة في ملابسها وزينتها، وضعت قطعة من قماش ملون على الأرض ووضعت عليها متعلقاتها، وقد لاحظ، وهو يقف ينظر إليها، مفاتيح سيارة رُبطت بسلسلة تحمل مفاتيح أخرى كثيرة وضعتها فوق قطعة القماش، هي إذن لا تبتغي مالاً كما يعتقد البعض ممن استوقفهم المشهد، انساب عزف الكمان هادئاً جميلاً، كانت ألحانًا فرنسية عرفها من الوهلة الأولى، فلقد قضى ما يزيد عن العام في باريس بحثاً عن حياة بعيدة عن مصر أو ربما كان يبحث عن نفسه!

أغمضت عينيها وهي تعزف وأحلام لعقلها قد امتزجت بألحان الكمان، يبدو وكأنها هي الأخرى تبحث عن نفسها، لم تجد شيئا في الأرض فقررت

أن تحلق بعيداً عن البشر، تحلق في عالمها الخاص، هناك حيث لا يُؤرق دنياها أحد!

شعر بفضول ورغبة عارمة في التعرف إليها!!

***

مضت سنة كاملة منذ أن عرفها، يبتسم كل صباح فربما يلقاها في ذلك اليوم، أحب كل شيء أحبته، وكره كل ما كرهته، إنه الحب لا غيره، حياة تملأها حياة، رأى فيها أحلامه، فكانت هي بحق ملكه حياته.

«ربما دائما ما تكون البدايات هي الأجمل على الإطلاق»، كانت تلك العبارة تمر برأسه ورأسها، ولم يجرؤ أحدهما على أن يصارح الآخر بها، كان هناك خوف دفين، خوف من ذلك التطور السريع في العلاقة، إنه مصير وليست علاقة عابرة، كلاهما يحب الآخر وكلاهما يخاف من الآخر.

***

لقد رأت فيه كل ما تتمناه، هو ببساطة «مختلف»، مختلف عن ذلك الرجل الشرقي الذي تراه كل يوم، سئمت من تقاليد وعادات المجتمع الكاذبة، كرهت الازدواجية، مجتمع يدعي الكمال والنقص يملأه، يدعي حب الله وطاعته وإذا أُتيحت له لحظة اختيار حرة ذهب إلى الخطيئة وهو لها راغب، حياة ظاهرة وحياة باطنة!

هكذا كانت الأفكار تصارع عقلها، هي تريد أن تحيا حياة واحدة، واحدة فقط وتريد الشخص المناسب لتلك الحياة!

***

هو بلا شك يحبها، لقد أضفى حبه لها حباً آخر لنفسها، شيء ما لا تستطيع تفسيره يحدث الآن، هو من تريد، شخص متفتح يحترم عقلها، فلا يفرض القيود كما يفعل غيره، يفعل كل ما يجعلها تحبه!

***

لم يدم الزواج أكثر من عامين فقط!

نقطة ومن أول السطر.. بدون تفاصيل!

طلبت مني ألا أكتب عن التفاصيل، طلبت فقط أن أكتب ما أرادت هي فكان لها ما أرادت، وأتبعت:

«إن الرجل الشرقي كلوحة «الموزاييك» تراها جميلة من بعيد، وتظن أنك تدرك أبعادها، فإذا اقتربت منها أكثر فأكثر ذهب كل شيء! فما كان جميلاً ومقبولاً بالأمس لم يعد مقبولا اليوم!».

ـ حضن الأرض ـ

لا أدري ما كان يحدث لي في تلك اللحظة، كنت فقط أستجيب لذلك النداء، نداء الحياة أو ندائي الداخلي بالهروب من الموت!

(١)

ـ حضن الأرض ـ

«لعلها كانت أصعب لحظة في حياتي، رأيت ما هو أسوأ من ذلك، كنت أحسبني أقدر ولكن شيئا ما تغير بداخلي، شيء ما يهز كياني كلما تذكرت ما حدث، لقد أدركت كم أنا ضعيف!»

***

أعلن قائد الكتيبة أننا سنتوغل في «الشيخ زويد»، وصدرت الأوامر بالمسح والتطهير الكامل، أدركت هول الأمر وصعوبة المهمة، خاصة وقد التحق بمجموعتنا مجموعة صغيرة من العساكر حديثي التجنيد كانوا بحق مجموعة من الأطفال، نحيلة أجسامهم، لا يفقهون شيئاً عن القتال، حتى إطلاق الرصاص هو بالكاد كل ما يعلمونه عن القتال، كنت أخشاهم، وأخشى عليهم، إن خطأ الواحد منهم قد يودي بحياتنا، وكيف لهؤلاء الصبية بالتوغل في «الشيخ زويد» وهذا الأمر أثار قلقي، إن حرب الشوارع هي أصعب أنواع الحروب على الإطلاق وما أكثر جرحاها وقتلاها! إنها تتطلب مهارات بعينها، أعلم أن هناك أُلفة من نوع خاص بين الجندي والأرض، أُلفة تجعله يعرف أين ومتى يختفي من

الموت! إن الأرض للجندي هي بمثابة أمه التي يلقي بنفسه ملصقاً جسده بها ليحتمي من موت محيط!

أذكر أنني كنت أختبئ فجأة دون أي أمر لي بالاختباء أو الحذر، كنت فقط أستجيب لنداء ما، لشيء لا أعلمه يدفعني لترك موقعي هذا، أتمدد على أرض القتال أحمي رأسي ووجهي بذراعي، وما هي إلا ثوان، وأري مكاني السابق وقد ملأته النيران، أو تحول إلى حفرة إثر انفجار غير معالمه، وقد استُشهد فيه من استُشهد!

لا أدري ما كان يحدث لي في تلك اللحظة، كنت فقط أستجيب لذلك النداء، نداء الحياة أو ندائي الداخلي بالهروب من الموت!! شيء ما يحركني! إنها السماء! فهي وحدها تعلم من سيبقى ومن سيرحل، وما نحن إلا أدوات بيد السماء، نستجيب لندائها، أو تُصم آذاننا وتستجيب الأرواح للنداء!

تذكرت مهمة الشيخ زويد مجدداً وحرب الشوارع المنتظرة، إن التوغل يحمل الكثير من المخاطر، تعودنا على حماية الكمائن والنقاط الثابتة، ولكنها أرض جديدة علينا، خاصة أن هـؤلاء الجنود الجدد لا خبرة لهم، ولا أُلفة بيننا وبين تلك الأرض!

***

صدرت الأوامر لنا بأن نخلد إلى النوم مبكراً، فما هي إلا ساعات قليلة ونبدأ بالتوغل في زويد، حاولت النوم في تلك الليلة وفشلت، كان العنبر مكتظًا بالجنود، غير أن ثرثرة أخذت تعلو بينهم، وأخذت أستمع إليهم

لعل النوم يعرف سبيله إلى عيني!

لاحظت أن مصطفى، وهو أحد المجندين الجدد، كان يصغي باهتمام لأحاديث رفاقه، خاصة من تمرس منهم على القتال، دارت الحكايات عن بطولات أحدهم في القتال، امتزج الواقع فيها بالخيال، وعن نوادر بعضهم مع الضباط، وهو ما أضحكنا جميعاً، أحسست بارتياح عجيب بين هؤلاء الرفقاء!

سأل أحدهم مصطفى:

- إنت قاعد ساكت كده ليه يا درش؟ أوعى تكون خايف من بكرة؟

مصطفى: لا والله مفيش حاجة، ويا عم الأعمار بيد الله! إن شاء الله ننضف المكان كله ونرجع كلنا سالمين!

نزل الصمت علينا جميعًا بعد كلمات مصطفى وكأنها ذكرتنا بيوم غد!!

لاحظت ذلك فقاطعت الصمت متسائلاً:

- وإنت ليه مش خاطب لحد دلوقتي يا مصطفى؟ في أي مشكله لا سمح الله؟!

انفجر العنبر، ومصطفى أيضاً، بالضحك، وأجاب: والله لسه ربنا ما أرادش، لما أشتغل الأول يا ريس وربنا يكرم وهعزمكم كلكم .. إن شاء الله!

كنا نعلم جيداً الواجب المنوط بنا، نعلم ما كُلِّفْنَا به من عمل، لم تكن سيناء ولن تكون أبداً «ولاية سيناء» بل سيناء كما عرفناها، جزء من وطننا، طاف بخيالي ما سمعته عن «داعش» وويلات ما ارتكبوه في كل

مدينة دخلوها، أحسست بالدم يجري في عروقي، رغبت في أن أبدأ قتالي معهم الآن، وأن أُصبحهم بصباح لم يشهدوه من قبل، تختلط فيه أصوات صراخهم بأصوات بنادقنا! طاردتني أفكار أخرى وأسئلة خفت منها، حاولت أن أبعدها عن عقلي فلم أستطع، هل القتال سيؤدي النتيجة التي نرجوها؟ هل بالقتال نستأصل ذلك الفكر الذي أفسد البشرية وأساء للإسلام والمسلمين؟ إن أرواحاً كثيرة قد أزهقت من كل الأطراف ولم يهزم الفكر؟ وهل يثني العقل قتال؟ فلقد علمنا التاريخ أن العنف لا يُنبت إلا عنفاً.

عَدلت عن أفكاري حين تذكرت أنني أحارب من أجل الدفاع وليس من أجل الهجوم، من أجل إنسانيتي التي طالما رجوت أن أضيف بها شيئا للبشرية، صارعتني أفكاري مجدداً غير أن النوم أنقذني أخيراً من هذا الصراع!

***

سيناء – الشيخ زويد – الرابعة فجراً

كنت أتقدم المجموعة وخلفي عدد كبير من الجنود يسيرون بحذر في صفين، تسبقنا الدبابات ومن خلفنا عربات مصفحة ثُبتت المدافع الرشاشة فوقها، طنين الأباتشي يشق سكون الليل، أبواب المنازل ونوافذها مغلقة وكأننا نسير بشارع هجره أهله منذ سنين، انقبض قلبي فصوت الأباتشي يزلزل المكان، وسكون المنازل هو نذير شؤم لي...

ملأت رائحة البارود المكان ونفذت إلى رئتيّ، سحب من الدخان

غطت الشارع، بل سماء زويد بأكملها، كنت أميز الأنواع المختلفة من الأسلحة، فقد تمرست أذني على ذلك، سمعت صوت قذيفة هاون تسقط على مقربة مني، فاحتميت بالأرض وأبعدت جسدي قدر استطاعتي، حاول بعض الجنود الاحتماء بجدران المنازل غير أن عبوات ناسفة قد زرعت على جانبي الطريق وقد انفجرت جميعها مع اقتراب أول جندي منها، سمعت أصوات عربات تنهب في الأرض، حسبتها أول الأمر عربات مجموعتنا، رفعت رأسي ببطء ورأيت عربات داعش تحمل فوقها مضادات للطائرات تمركزت في بداية وفي نهاية شارع القتال، وبدأت في العمل ومدافع آر بي جي تقصف دباباتنا والعربات المصفحة!

صرخ أحد الجنود بأعلى صوته: حاسب يا مصطفى، هاون! انفجرت القذيفة، وأبىَ صوت انفجار القذيفة أن يُسمع الدنيا صوته ثانية!

وفي ثوان دكت الأباتشي عربات داعش، وأمطرت جنودهم بالقذائف، فر جنود داعش بالشوارع المجاورة غير أن الطائرات حاصرتهم فلم يجدوا سبيلا إلا الدخول في شارعنا حيث مات مصطفى وسالت دماء آخرين بين جنباته، صرخت في الجنود حتى حسبت أني فقدت صوتي: اضربوا، اضربوا في أول الشارع وفي آخره .. يالاه .. مفيش وقت!

انطلقت نيران غضب وكره، نيران ألم تحملته أجسادنا وستتحمله أجساد من تركناهم وراءنا، اندفعت وقد فتحت نار بندقيتي لتحصد من جنود داعش ما تشاء، كنت أضرب وكأنني قد أصبت بالجنون، أوجه بندقيتي حتى لقتلاهم، أعملت سلاحي فيهم، تحولت إلى حيوان يقتل

بلا رحمة، أطلقت الرصاص مرات على جثث الكثير منهم، كنت كحيوان يطارد فريسته وقد أقسم أن يفتك بها، رويت سلاحي بدمائهم، ولكل من تبقي منا!

كان باستطاعتي أن أُأُسر أحد جنودهم، وكانت الأوامر الصادرة أن نأسر منهم من نستطيع، غير أني تذكرت حديث الجنود ليلة أمس في عنبر معسكرنا، فأبيت إلا أن أمحو أثر جنودهم من الأرض وليكن ما يكون!

استمر قصف الأباتشي مدعومة بطائرات إف ١٦، وقد استطاعت مجموعتنا تطهير كل الشوارع الجانبية وتصفية كل من فيها من عناصر داعش، وأسرت مجموعة أخرى عددًا من جنودهم، وانتشرت عربات الجيش تملأ شوارع الشيخ زويد.

***

كانت بحق أصعب لحظة في حياتي، صدرت الأوامر لي بزيارة أسرة مصطفى وإبلاغها بخبر وفاته، إن خوفاً يعتريني الآن، أشعر بثقل الخبر على نفسي فما بال أمه وإخواته، اقتربت السيارة من منزل مصطفى وتسارعت نبضات قلبي وأحسست بالدم يندفع في عروقي، ارتعشت يدي حين حاولت طرق الباب، وقفت في مكاني أستجمع قواي لكي أبدو متماسكاً أمام الجميع، وانفتح الباب من غير أي طرق مني، لعلها سمعت صوت عربة الجيش وقد أطفأت محركاتها أسفل المنزل، فُتح الباب وإذا بوالدة مصطفى أمامي ساكنة تنتظر أن أتكلم، لم أقو على الكلام، نظرت إلى وجهي وحدقت في عيني، كانت ثواني معدودة مرت

وكأنها الدهر كاملاً، أدركت هي كل شيء، شعرت ساعتها بالعجز، بضعفي الإنساني، بقلة الحيلة وهوان الحال، إنها الرحمة لا يعرف سرها إلا خالقها، علا النحيب والصراخ، ألقت بنفسها في الأرض، تضرب الأرض بيديها تارة، وتلطم خدها تارة، وكأنها تسأل الأرض أن تخرج من فيها ولا تملك إلى ذلك سبيلا، انساب الدمع من عيني مع نحيب الأم، لقد رأيت الموت، شممت رائحته مراراً، رأيت أشلاء تملأ المكان ولم أبك، عرفت البكاء هنا، عرفت الرحمة وعرفت قلة الحيلة وهوان الحال، ولا أدري لما رُحت أكرر ساعتها قوله تعالى: «وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه»، كررتها مئات المرات، إنه وحده القادر أن يربط على قلبها، إنه وحده القادر ولا أحد سواه.

لم تكن أم مصطفى تريد المجد، أو تخليد اسم ابنها على أحد الميادين، لم تعرف المجد يوماً ولا يهمها ما تفعله داعش وغيرها، هي لا تعرف شيئا ولا تريد شيئا، هي فقط تريده هو، أجل زرع عمرها وحلم حياتها!

(٢)

مضت الأيام ثقيلة وطويلة، عدت في إجازة إلى البيت بل إلى حياتي السابقة، حياة ما قبل الحرب، أشعر أن شيئاً ما تغير بداخلي، لم أعد كسابق عهدي، أفكر كل ساعة في الميدان وما حدث فيه، أستعيد تفاصيل كل شيء، وكان الميدان كفيلًا بتغيير كل شيء بي، جلست مع أصدقاء لي على مقهى قريب من منزلي، كنت هناك بجسدي، بينما عقلي يشرد بين الحين والآخر ليعود مرة أخرى إلى مشاهد محفورة بذاكرتي

***

سيناء – معسكر التدريب – قبل سنتين – عند بزوغ الفجر

صوت اندفاع مياه رهيب، لم أستطع التنفس، الماء يملأ أنفي وفمي، ارتطم جسمي بالأرض، المياه تندفع في كل مكان، اصطدمت بأحد أعمدة الأسرة، خراطيم المياه تدفع أجسامنا، كنا جميعاً نائمين نترقب صفارة طابور الصباح، كان يومي الأول في «الصاعقة»، والشاويش رضا يقف تلمحه أعيننا بين الحين والآخر، تملأه النشوة وهو يرى أجسامنا ترتطم ببعضها وتتقارب كقطعة لحم واحدة!، بل أخذ ينادي بعضنا

مستخدماً صيغة المؤنث وأطلق أسماء نساء علينا جميعاً ليمعن في إهانة رجولتنا، صوته يشبه الرعد:

- اتحركي يا حلوة إنتي وهي بره العنبر .. بسرعة يا سوسن!

المياه تدفعنا دفعاً لتلقي بنا خارج باب العنبر، وفي الظلام تعثرت أقدامنا وسقطت أجسادنا على أرض وحلة، حيث طلب الشاويش رضا أن نزحف على بطوننا لساعة كاملة، ارتعش جسدي وكدت أفقد الوعي، غير أني تنبهت على صوت عبدالله، أحد المجندين من الصعيد، ووجهه الأسمر يملأه الوحل:

- ورحمة أمي يا رضا ما هفوتها لك!

لم يُسمع صوته، فقد طغى صوت المياه وحركة أجسامنا في الوحل على كل شيء، تذكرت كل هذا بينما أنا جالس أستمع إلى حديث أصدقائي، عدت إلى المنزل حيث بادرتني أمي:

- إيه حكايتك يا أحمد؟ إنت صرفت نظر عن موضوع سارة ولا إيه؟ يا ابني أنا نفسي أفرح بيك قبل ما اموت؟!

***

أمي تلح علي في أن أسرع بالزواج، هي لا تدرك أن شيئا ما قد تغير بداخلي، لم أعد أرى الحياة كما كنت أراها من قبل، لقد غير الميدان كثيراً في نفسي، أشعر بالغربة في بيتي وبين أصدقائي، حتى سارة، ابنة خالي وحبي الأول، لاحظت ذلك التغيير في، شيء ما لا أستطيع إخفاءه عن الناس، هي تظن أني قد وقعت في حب أخرى، هي لا تعرف أن شيئا ما قد كُسر

بداخلي، ما كان يسعدني بالأمس لا يفرحني اليوم، لقد رأيت وشَممت رائحة الموت، رأيت أشلاء مصطفى تتناثر من حولي، تذكرت أمه حين طُلب مني أن أُبلغها بالخبر، تذكرت بكاءها وهو تضرب الأرض بيمينها، تذكرت ضحكه وأحلامه، تذكرت عجزي وقلة حيلتي وأنا أبكي أمام أمه ولساني ما زال يردد: «اللهم لا ملجأ منك إلا إليك»، والآن تطلب أمي أن أتعامل مع سارة كما يتعامل المحبوبان، أحبها ولكن شيئا ما أكبر مني قد غيرني، شيء ما يربطني مجدداً بالميدان.

***

تهيأت للعودة إلى المعسكر، فقد انتهت أيام الإجازة المعدودة ربما بسرعة كما تعتقد أمي، كنت قد التحقت أنا وبعض زملاء لي في وحدة جديدة هي وحدة «التدخل السريع»، وكانت لتلك الوحدة مهام خاصة لا نُبَلّغ بها إلا قبل المهمة بساعات، حين علمت باسم الوحدة تبينت أن مهمتنا هي مهمات محددة وسريعة تتم في زمن قصير، وبالطبع من دون خسائر، عدد الفرقة ثلاثون فرداً، تم اختيار أغلب الأفراد من وحدة الصاعقة، ووحدة المظلات، ووحدات أخرى، كنا نتدرب على التصويب وإطلاق النار ونحن في وضع «طائر»، كنا نصوب ونحن نقفز من فوق المباني، أو حين نقفز من عربات متحركة، وقبل أن نسقط على الأرض يجب أن نصيب الهدف ولا مجال للخطأ، «فارغ الرصاصة الواحدة يعني إصابة هدف لا مجال لفارغ آخر»، بهذه الجملة كنا ننفذ كل شيء، وأذكر ما عاناه أصدقاء لي، بل عانيته شخصياً، حين أهدرت بعض الطلقات، وكان

«التكدير» لمدة أسبوع كامل كافياً لإصابة الهدف بطلقة واحدة.

- رحت فين يا ريس؟ وبتكتب إيه؟

بادرني عبد الله حين رأني شارداً فور وصولي إلى عنبر الكتيبة.

- والله يا عبد الله مش عارف! هو إحنا هنعمل إيه بكل التدريبات دي؟ ولإمتى هنفضل في حالة الحرب دي؟ كل شوية أفتكر مصطفى وغيره وغيره؟ ولإمتى الحرب هتفضل مكملة؟ أنا ما بقيتش عارف أعيش بعيد عن المعسكر وعن الحرب ، حاسس إن حياتي اتغيرت يا عبد الله، وكل اللي حواليه حاسين بكده.

- بكرة تتعدل .. مفيش حاجة بتدوم على حالها.

- المشكلة يا عبد الله مش في شوية الحيوانات اللي بنحاربهم، المشكلة في الأجيال اللي جاية! الأطفال والشباب الصغير، إحنا فجأة لقينا داعش في سينا، وظهر لنا ناس ما كناش مصدقين إنهم مصريين وعايشين بينّا بينتموا لداعش وبيتبنوا فكرهم، وبيفرحوا بالعمليات اللي داعش بتعملها، والله أنا أعرف دكاترة ومهندسين بيفكروا زي ما داعش بتفكر يا عبدالله، في طبقة كاملة إحنا ما نعرفش عنها حاجة، بيتربوا وبيكبروا، وفجأة بنلاقي نفسنا بنحاربهم!

- يا عم.. داعش دول مش مصريين.

- لا طبعاً، فيهم مصريين، وكمان في غيرهم بيشجعهم وبينتمي لأفكارهم بس مستخبي وخايف يتكلم، الموضوع أكبر من الأعداد اللي بنحاربها يا عبدالله؟

- وطي صوتك يا معلم .. وخبي اللي إنت بتكتبه ده!

- ليه .. هو إحنا بنقول حاجة غلط؟

- يا عم الله لا يسيئك!

كنت أؤمن أن المشكلة ليست في الحرب وحدها ولكن الموضوع أكبر من ذلك..

مساء اليوم التالي صدرت الأوامر لنا بالنوم مبكراً في تلك الليلة، وكان هذا مؤشراً كافياً ليخبر عن تنفيذ عملية جديدة، كنت قد ألفت أرض سيناء جيداً الآن، أحفظ كل شبر بها، وأجد ذلك الحنين بين رمالها، وأستجيب لندائي الداخلي، أو ربما نداء السماء لأحتمي بها من موت كان قد أحاط بي، لا أجد تفسيراً واحداً لتلك الحالة التي تعتريني حين أمدد جسدي وأحتمي بالأرض، ربما هي دعوات أمي، وربما هي السماء، فربما لم يحن بعد موعدي معها .

- اجهز يا ريس لبكرة .. ربنا يستر!

- عارف يا عبدالله .. أنا عمري ما حاربت وانا خايف أموت.. يمكن علشان كده ربنا بيسترها.

- ربنا يستر .. الظاهر بكره هندخل زويد تاني!

- خير إن شاء الله !

***

لم يكن مسموحًا لنا باستخدام الهواتف، أو مشاهدة التلفزيون، أو الاستماع إلى الراديو، كنا في عزلة تامة عن كل شيء، ولم يكن مصرحًا

لأحد منا أن يتحدث عما نفعله، ولا عن نوع العمليات .

لم تمر إلا ساعة واحدة حتى انتفضنا جميعاً على صوت قائد الفرقة وهو يأمرنا بالاستعداد وارتداء ملابسنا وحمل أسلحتنا والمعدات في أقل من خمسة عشرة دقيقة، اصطفت العربات أمام باب الفرقة، وعلم كل واحد منا مكانه المخصص له، كانت العربات تنهب الأرض نهباً، كل شيء يتم بسرعة، تعجبت، فهذه هي المرة الأولى التي نخرج فيها لتنفيذ مهمة من دون شرح لطبيعة المهمة، لم نتلق أي تعليمات، وما هي إلا ساعة حتى وصلنا إلى مدرج للطائرات!

علا صوت قائد الفرقة يأمرنا بالتحرك لركوب طائرة حربية، لم نكن نعلم أين سنهبط وما هي المهمة الموكلة لنا، لم نعلم شيئا، ولم يجرؤ أحد على السؤال، الكل يشعر أن الأمر خطير، ولكننا في تلك الظروف نطيع الأوامر، ولا مجال للمناقشة، حلقت الطائرة في الهواء، قضينا قرابة الساعة في الهواء قبل أن تستقر الطائرة في تلك القاعدة العسكرية، تحركت المجموعة إلى عنابر خُصصت للمبيت، فور سماعنا أمر قائد القاعدة العسكرية، كنت أود لو أن أحدهم أخبرنا أين نحن الآن وما هي المهمة.

- عبدالله .. إنت صاحي؟

- ومين جاي له نوم؟ هو إيه اللي بيحصل؟ وإحنا فين اصلاً؟

- علمي علمك؟ أنا تعبان وعايز أنام، يالا حاول تريح شوية علشان بكرة!

***

على غير العادة، لم يكن هناك طابور للصباح، فقط أُمرنا بالتحرك للميز لتناول وجبة الإفطار، ثم وفي تمام الثامنة صباحاً، أمر قائد القاعدة الجميع بالتوجه إلى القاعة الرئيسية للقاعدة الحربية، ساعتها أدركت أنها لحظة الكشف عن تفاصيل المهمة، كانت الفرقة مكونة من ثلاثين مقاتلا، جلسنا جميعاً في مقاعد خصصت لنا ملتفين حول شاشة عرض كبيرة، وقف قائد الفرقة يتحدث للجميع:

- هنتفرج على فيلم صغير وبعد كده هنبدأ الاجتماع؟

لا أستطيع وصف مشاعري ساعتها، تتابعت دقات قلبي، لم أستطع إخفاء ما بدا على وجهي، وقد غلى الدم في عروق جسدي، رأيت مجموعة من الرجال بملابسهم البرتقالية وقد أمسك بكل رجل منهم رجل آخر ملثم واضعاً يده على كتف الرجل ذي الملابس البرتقالية، كانوا جميعاً يسيرون على شاطئ بحر، وهنا تحدث القائد:

- الناس اللي لابسة البدلة البرتقاني دول واحد وعشرين مصري شغالين في ليبيا وداعش خطفتهم وذبحوهم بالطريقه اللي إنتو شايفنها دي.

لم أتمالك نفسي وأنا أنظر إلى أفراد داعش في ملابسهم السوداء وقد أخفَوا وجوههم، احتقن وجهي بالدماء وأنا أنظر كيف أجلسوا ضحاياهم على رمال الشاطئ، بل وكيف تمت عملية الذبح، لن أنسى وجهه وهو يتمتم قبل أن يُذبح، لم أر أي أثر للمقاومة، لم أر بكاء أحدهم، رأيت فقط الثبات، رأيت راحة ورضا في عيونهم، رأيته وهو يتحدث إلى السماء، لا شيء يستطيع وصف مشاعري في تلك اللحظات، لن أنسى موج البحر

وقد امتزج بالدماء.

أنظر إلى قائد الفرقة وهو يلقي تعليمات المهمة، هذه المرة لن تكون الأرض مصرية، ستتم عملية إنزال للفرقة بجنوب مدينة درنة الليبية! في تلك المرة تناسيت علاقتي بالأرض، كنت أحب أن أقاتل في أرض آلفها وتألفني، أما في أرض غربية عني لا أعلم شيئا عنها فهو أصعب علي، أعلم جيداً أن ما أشعر به من ارتباط بالأرض لا تفسره قوانين الحروب، ولا أجد تفسيرًا آخر لاستجابتي لندائي الداخلي بالاحتماء بها سوى أن ساعتي لم تحن بعد، كانت مشاعري مختلفة في ذلك اليوم، لا يزال منظر المصريين في تلك الملابس الغريبة، وتلك الجِلسة المهينة، وطريقة الذبح لا تفارق عقلي، تجردت من كل شيء يربطني بالحياة، وهنا طلبت الموت .

عبد الله: إنت عارف العيال اللي ماتت دول من البلد .. من عندنا؟

- أنا سمعت في منهم من المنيا.

- بقول لك من البلد من عندنا .. وشوفت ولاد الكلب عملوا فيهم إيه؟

لا أعتقد أن أحدا منا استطاع النوم في تلك الليلة، ما هي إلا ساعات ليل قليلة تفصلني عن فجر غد حيث سنبدأ بالتنفيذ، كانت العملية منقسمة إلى جزئين؛ الجزء الأول ضربات جوية مركزة تستهدف معسكرات تدريب ومخازن أسلحة داعش في درنة وسرت الليبيتين، مصحوبة بعملية إنزال بري للفرقة بدرنة، وكانت الأوامر واضحة للمقاتلات الجوية بدك معسكرات داعش ومساواتها بالأرض تماماً، أما فرقة التدخل السريع

ستتم عملية إنزال بري وكُلفنا بقتل وأسر كل المتواجدين والفارين من نقاط ضرب الطائرات المقاتلة.

***

القاهرة - الخميس - ١٨ فبراير ٢٠١٥ - الساعة الثانية عشر ظهراً

- افتحي يا سارة الأخبار .. نشوف بيقولوا إيه!

- حاضر يا عمتي!

- «شنت القوات الجوية المصرية عدة ضربات على مواقع تنظيم داعش في ليبيا، بعد أن أصدر تنظيم داعش في ليبيا فيديو بتاريخ 15 فبراير يصور قطع رءوس 21 من المسيحيين الأقباط المصريين، وخلال ساعات، ردت القوات الجوية المصرية بضربات مركزة ضد أهداف محددة انتقاما للعمال المصريين، وأفيد أن الجولة الأولى من الضربات الجوية المصرية قتلت 64 من مقاتلي داعش، بينهم ثلاثة من القيادة، في المدن الساحلية في درنة وسرت، كما قامت القوات المصرية بعملية إنزال فجر اليوم 18 فبراير لمجموعة من قوات التدخل السريع، في معسكر أبو كريم الوهداني جنوب درنة، حيث تمكَّنت من قتل أكثر من 100 عنصر من داعش وأسر العشرات».

لم يمض يومان حين طرق عبد الله ممثل من قوات الجيش الباب ليبلغ والدة أحمد خبر استشهاده، وقد حمل معه حقيبة صغيرة تحوي متعلقاته الشخصية، وقف عبد الله أمام أم أحمد نفس تلك الوقفة التي وقفها أحمد من قبل، وقف لا يقوى على الكلام، وقف يبكي كما بكى صاحبه من

قبل، وقف أمام أم ثكلى، وحلم قد مات، وزرع عمر لم تكتب له حياة، تركها وترك معها لفافة من ورق كان قد أخفاها بداخل بدلته العسكرية، أخفاها حتى لا تقع بيد أحد من زملائه أو قادته، ترك لها ما سأل أحمد عنه يوماً، ترك لها يوميات رفيق عمره وصديق كفاحه.

ـ 11 ثانية ـ

تم نشر القصة بجريدة أخبار اليوم
– عدد الجمعة– 2016–11–25

ـ 11 ثانية ـ

كانت هي أطول لحظات حياتي ...

- 11 ثانية -

رأيت نفسي مُمَدداً فوق السرير، أشعر بكل شيء، شيء ما يحدث الآن، شيء ما يتغير، لا أشعر بجسدي، لا أقوى على شيء، أسمع هرولة الممرضين والأطباء وصياحهم محاولين إنعاش عضلة قلبي، أعي كل ما يدور حولي، أرى زوجتي تبكي، تقف بعيداً، تتمنى وتدعو الله، كنت أنظر إليهم من هناك، من أعلى، أنظر إليهم من سقف غرفة العناية المركزة بمستشفى قصر العيني، تخطى بصري حدود الغرفة أُبصْر كل الممرضات يهرولن في ممرات المستشفى ثم لا أستطيع أن أتابعهم، هم يدخلون ويخرجون في غرف بعيدة عن غرفتي، إني أعرفهم جيداً، أشعر بصدري وهو يهتز بعنف، ربما يحاولون استعادتي للحياة، كانت هي إحدى عشرة ثانية من عمري، رأيت ياسمين ابنتي وهي تَكبُر، سمعت ضحكها، رأيت بكاءها، كنت أخاف عليها من كل شيء، واليوم أخاف عليها من الدنيا كُلها، هي بحق حبي الكبير وزهرة عمري وزرع شبابي.

ما هذا؟! هذا مؤلم، إبرة قد غُرست في صدري، ربي إني أخاف لقاءك فإن معي من الذنوب ما لا أطيق، يا رب حاولت قدر استطاعتي، يا رب

إني مُقر بذنوبي وأنت أرحم الراحمين، أشعر بثقل يملأ جسدي، لا أتمكن من الرؤية مجدداً من سقف الغرفة، لا أشعر بمن حولي، أشعر بتعب، أريد أن أنام، وآخر ما سمعت كان صوت الطبيب الشاب: «الحمد لله لحقناه بالسلامة».

***

هذا ما رواه لي أحد المسافرين، كنت قد تعرفت عليه في الطائرة، كانت رحلة طويلة، تبادلنا خلالها الأحاديث لنخفف عن أنفسنا طول المسافة وعناء السفر، روى لي قصته ثم خَلد للنوم، تركني وقد امتزجت مشاعري وصارعتني الأفكار! تساءلت عن الحياة، هو وإن كُتب له أن يرى نهايته للحظات ثم رّد ثانيةً إلى الدنيا، مات مرة ثم عاد للحياة مرة أخرى، يتذكر شيئا فقط، تذكر أولاده وعمله!!

ـ الشيطان ـ

حين دقت أجراس الكنائس
وحين امتلأت المساجد

ـ الشيطان ـ

دقت أجراس الكنائس، وصدحت جدرانها بترانيم صلوات صاعدة إلى السماء، تحمل فرح الأرض ورجاء لها عند أهل السماء، المساجد امتلأت عن آخرها وخشعت جموع المصلين، وتعلقت أعينهم بالسماء وفاض الدمع على الوجوه..

الشمس سطعت في سماء زرقاء صافية، ونسمات تملأ الدُنيا بهواء لم يعرفه أهل الأرض من قبل!

كان يوم صدق في الأرض، فلقد كف فيه الشيطان عن غواية ابن آدم والوسوسة له!

***

الملاك: آلآن وقد عصيت من قبل وكفرت بالله؟!

الشيطان: لم أكفر بالله سبحانه يومًا، كفرت بخلقٍ من خلقه، كفرت بآدم، وما عَلمت فيه من ضعف، كفرت بمن فُضّل عليّ، بمن دُلل كالطفل فطغى وحمل الأمانة فكفر، أفأؤمن بظالم جهول، من ابتدع القتل، وقتل أول من قتل، قتل من؟ قتل أخاه، قتله بمحض إرادته، لم أُوسوس

له ساعتها ، علم البشرية القتل، فسالت بحور من دم لا حصر لها، ألم يقل ربنا: «فطوعت له نفسه قتل أخيه»؟! فعلها بنفسه وإرادته هو وليس أنا!

صمت الشيطان للحظة ثم أكمل: ما تفوق عليّ ولد آدم في شيء كما تفوق عليّ في الشر؛ أبدع فيه وابتكر، خلق من الآثام والفواحش ما لم أفكر فيه من قبل، أهذا الذي فضله الله عليّ؟! وكيف يسجد القوي للضعيف؟ كيف يسجد من يَأمر لمن يُؤمر؟!

الملاك: كفاك يا عدو الله كذباً، أنت من علمته كيف يكون القتل، أنت من أرشدته إلى الطريق، أنت من أريته كيف يهوي بالصخر فوق رأس أخيه فلم ينطق ولم يتحرك بعدها، لم يكن يعرف ساعتها كيف يكون القتل وأنت من أرشدته، ولم يكن يعرف أيضاً كيف يواري سوأة أخيه، فأرسل الله له غراباً ليعلمه ويُرشده، أنت من أغويته وأرشدته إلى الضلال!

الشيطان: وهاأنذا قد كففت عن غوايته وتركت له الدنيا، ليملأ الأرض بالخير ويُعمرها، فلننظر صنيع عمله!

***

انقضت صلاة الجموع، والأرض قد عاشت أجمل أيامها، خلا الهواء من أنفاس الشياطين ووساوسهم، عمت المحبة، لكن لم تخل الحياة من الخطيئة! فابتسم الشيطان حين رأى بعض ولد آدم وقد عادوا للخطيئة بمحض إرادتهم ودون أي وسوسة من الشيطان.

الشيطان: أرأيت ما كان من ولد آدم؟ والله ما أغويته، رجع للخطيئة بمحض إرادته.

الملاك: لتعلم يا من حق عليه غضب الله، أنك أنت .. أنت من دنست حياة ولد آدم وأفسدتها، أنت من عَلمته المعصية وفتحت له طريق الشهوات وألهيته بالدنيا فانشغل بها وتركته بين المعاصي، فاعتادت نفسه المعصية لسنوات وسنوات، ثم الآن تتنصل منه ومن فعلتك، أنت أصل خطيئته، أنت أصل المعصية!

صرخ الشيطان، فشق سكون السماء بصوته، فلقد مسه عذاب من أهل السماء..

ـ نسخة جديدة ـ

الصواب والخطأ

ـ نسخة جديدة ـ

لم تكن تلك هي الحياة التي أرادتها لنفسها، انساقت كغيرها في حياة تقليدية رسمت خطوطها العريضة أسرة ومجتمع شرقي وأُناس آخرون لا تعرفهم، اجتمعوا كلهم على أن يجعلوا من حياتها نسخة كملايين نسخ سابقة!

حَسبت نفسها يوماً أنها تستطيع، حسبت أنها سَتُحدث الفارق، وأنها ستُغَير وتتحدى كل شيء.

***

لطالما شعر بالتيه، تمردَّ على كل شيء، أحب الحياة كما لم يحب من قبل، فقضى سنوات عمره يجوب بين جنبات أيامها، تغمره سعادة الشباب وروح المغامرة، بينما تملأ لياليه الوحدة وشعور تيه لا يفارقه!

ربما نكون نُسخًا متشابهة ونماذج مكررة، تحجب الحقيقة صورنا الزائفة وأقنعة صنعناها بأنفسنا، وربما صُنعت لنا!

***

- أنا عايزة أطلق!

احتقن وجه الأم بدم ساخن:

- حرام عليكي، كفاية بقى هتموتيني! تخربي بيتك بإيدك؟! (لحظة صمت) دا أبوكي يروح فيها! وعيالك مين اللي هيربيهم؟! إنتي مجنونة؟! ربنا يهديكي!

- ماما .. مش قادرة؟!

الأم بنبرة حادة:

- مش قادرة إيه؟! جُوزِك فيه إيه؟ إتكلمي؟! راجل محترم وبيحبك! عمره ما اتأخر عليكي في حاجة! عمره ما زعلك! عايزة إيه تاني؟

- يا ماما افهميني، أنا مش سعيدة مع أحمد، أنا عارفة إنه ممكن يكون بيحبني، بس أحمد تقليدي أوي يا ماما، حياتنا روتينية، ماكنتش شايفة دا قبل الجواز، كنت متخيلة إني ممكن أغيره، حاولت كتير إني أعوده على التغيير، وإنه يجرب حاجات جديدة، الحياة كئيبة معاه أوي يا ماما! حاسة إني عمري بيضيع مني، ساعات بَمَثل إني بحبه علشان ما يزعلش، بس من جوايا مش عايزة أَكَمل حياتي كده، نفسي أعيش حياتي زي ما أنا عايزاها!

- سلمى؟! إنتي في حد شاغلك؟

تتنهد سلمى وتكمل:

- اطمني يا ماما .. ما فيش حد! ماما خلاص .. أنا كنت بس بفضفض معاكي.. وأحمد أنا عارفه أنه بيحبني!

لم تجد أحداً غير أمها لتصارحه بما يَعتمل في وجدانها، غير أنه وفي تلك

المره كان هناك صدى يهز عقلها، صدًى تخشاه بل وتنكره، شيء ما كانت تتجنب مواجهته إلا وهو سؤال أُمها الأخير!

كانت تنكر بكل كيانها ذلك الشعور الذي ينتابها كلما تذكرت «عمر»، زميل جديد قد التحق بالعمل في نفس فرع البنك الذي تعمل فيه، كان مختلفًا بحق وهو ما جذب انتباهها إليه، كانت حريصة كل الحرص ألا يبدو عليها شيء، بل إنه لم يكن يعلم بما تُخفيه نفسها، فكانت معاملتها له طبيعية جداً في ظاهرها، بينما عقلها مشغول دون إرادتها به.

هل يحق للمرأة أن يتعلق قلبها برجل بينما ارتبطت حياتها برجل آخر؟

كانت ترى في حياته صورة من حياة كانت تتمنى أن تحياها، ربما هو أو شخص بمثل طباعه هو من تريد أن تكمل حياتها معه.

جَلدَت نفسها ملايين المرات لمجرد أنها فكرت في ذلك الشعور تجاه «عمر».

إن لعنة قد حَلت بها، لا يجوز أن تفكر هكذا، هي امرأة متزوجة، بل وعندها أطفال، كل شيء يدعوها لأن ترفض فكرة الانفصال عن زوجها، غير أن شيئا آخر كان يُهدئ من روعها، فلقد كانت فكرة الانفصال تراودها قبل عامين من ظهور عمر، بل ربما كان عمر من حفز الفكرة، من أعطى الأمل في حياة جديدة، حياة تملكها ولا تُجبر عليها!

هكذا كان ليلها خوفًا وعذابًا وحيرة، بل وأحلام مستقبل لا تعلمه، كل شيء يطاردها في الليل، فأصبح الليل شيئا تخشاه بحق.

***

لم يكن الطلاق بالأمر الهين، كان أقسى تجربة مرت بها، وزاد من قسوتها حالة الازدراء المجتمعي التي تعرضت له، وما أشد الجروح إن هي أتت من أُناس كنا نحسبهم يوماً أخلاء، كانت تحسب نفسها أقوى، شعرت بالضعف وقلة الحيلة، بَكت حتى جف دمعها، وزاد من عذاب لياليها ما فعله طليقها الذي أبى إلا أن يحرمها رؤية أطفالها، لم تفكر في عمر ساعتها، أدركت أن عمر كان محفزًا تسارعت معه أفكارها، أرادت نفسها، وحياة تملكها هي.

تنكرت لها الدنيا حين أرادت أن تختار حياتها، ولفظها الجميع حين أرادت طريقًا تحسبه الأفضل لها!

- الشيخ -

لطالما تساءلت نفسه عن سر الوجود، بل عن غايات الأشياء، هرب طويلاً من صراعات عقله وحاول مراراً البحث عن إجابات تهدأ لها نفسه.

- الشيخ -

يبدو وكأنه قد تجاوز السبعين عاماً بقليل، دخل من باب المسجد وقد ارتدى جلبابه الأبيض، لم يكن يقوى على المشي، اتكأ على عصا له، نادى إمام المسجد لصلاة التراويح، وقف في الصف الذي يلي الإمام مباشرةً، وقد أحضر كرسياً ليستريح عليه ما بين الصلوات، كان الإمام يَشدُو بالآيات في خشوع خَشع معه المصلون، ونادى «الله أكبر» آمراً بالسجود، سجد الشيخ لربه وأخذ يتمتم بصوت مكتوم: «يارب!»، ثم ذهب في بكاء حاول جاهداً كتمانه.

انتبه شاب في العشرين من عمره كان يصلي عن يمين الشيخ، انتبه لبكاء الشيخ، ارتبك بعض الشيء وتلعثم لسانه عن آيات كان يحفظها يوماً عن ظهر قلب!

قُضِّيَتْ الصلاة وعاد الشاب وما زال شارداً يتفكر في بكاء الشيخ ومناجاته لربه، ربما كان عليه أن يتحدث معه، ربما كان يستطيع مساعدته، قد يكون مريضاً أو محتاجاً، لقد رق قلبه لحال الشيخ وعزم أن يتحدث معه في صلاة يوم غد.

***

عاد الشيخ إلى بيته، حاول النوم فلم يستطع، ذكريات عديدة تمر الآن أمام عيناه، تذكر أيام الشباب وما كان فيها من صراعات لعقله، كانت سنوات ملأها التِيه، لا يعرف ماذا يريد من الحياة؟، بل ماذا تريد الحياة منه؟، بل ظل لسنوات يتساءل ويطرح سؤاله الأبدي: لماذا خلقه الله؟

كان عقله كورقة شجر تُلقي بها الرياح حيث تشاء، لطالما تساءلت نفسه عن الوجود وعن سر الخلق، كان يهرب من مطاردة تلك الأفكار لرأسه، ظل يهرب ويهرب لسنوات، وانخرطت نفسه في متاهات الحياة!

ربما لم يكن هارباً من أفكاره، بل كان يبحث عن ذاته، وعن نفسه التي طالما أَرَقّتْ لياليه!

تذكر أيام قوته، أحياناً يبدو عليه أنه قد وجد نفسه، وأحياناً كثيرة تعود به نفسه إلى الوراء، وهكذا مضت سنوات عمره.

لم يكن بكاء الشيخ في تلك الليلة عن ذنب قد اقترفه من قريب، بل إن بكاءه لَيخبر عن عذاب نفس أرهقها التيه، وعن حياة كاملة قد وَلَت سنواتها!

***

تمنى الشاب أن ينهض من فراشه ليبحث عن الشيخ الهَرِمْ، نفسه تحدثه بيوم غد حيث يلقاه ثانيةً ويتكلم معه.

لم يأت الغد كما كان يرجو شاب العشرين؛ فلقد صعدت روح الشيخ إلى بارئها في تلك الليلة، لم يستطع موت الجسد أن يمحو ابتسامة رُسمت على وجهه، شيء ما حدث، ربما وهو يلفظ نفسه الأخير.

غير أن الشاب ما يزال هناك ينتظر الغد !

- تغيير بسيط -

تخيل أنك تستطيع إعادة الزمن إلى الوراء لعشر سنين، وأمامك فرصة واحدة لتغيير شيء واحد فقط من الماضي، فما هو الشيء الذي ستغيره؟

- تغيير بسيط -

كنت أمسك بالقلم لأكمل خواطر قد بدأت في كتابتها منذ أسابيع قليلة، وإذا بعقلي يطوف دون إرادة مني لأجد نفسي محلقاً هناك في سماء الماضي، أنظر إلى السنوات وقد رُسِمت أمامي واحدة تلو الأخرى، أرى كل شيء بوضوح، لم يتغير شيء، كل شيء كما هو، كل الأحداث كما هي، أسمع صوت مدرس اللغة العربية بالمدرسة، أسمع صوت لهو الطفولة، ابتسمت فلقد رأيت ضحكنا، شارعنا القديم، تسارعت نبضات قلبي لأشياء عديدة لم تكن بعيدة عن زمن الطفولة، كنا نحمل ساعتها قلوباً نقية، وأرواحاً ملأت الحياة جنباتها، سمعت صوت بكاء، أحس بخوف، رأيتني أصلي، أقف وحيداً في صحراء وأنظر إلى السماء، رأيت أياماً ملأ فيها الرضا نفسي.

وإذا بي أتساءل: لو أُتيحت لي فرصة واحدة لتغيير شيء واحد من ذلك الماضي.. فما عساي أن أغير؟!

وإذا بقلمي يسبق عقلي، يناقشني ويصارع أفكاري، لم أذق النوم ليلة البارحة، فلقد كان نقاش حاد يدور بيننا..

***

العقل: ابعث رسالة إلى أصدقائك لتسألهم نفس السؤال الذي سألته لنفسك، ربما أجد شيئا أقتدي به!

القلم: إن الماضي لن يتغير!

العقل: أعلم هذا ولكن دعنا نجرب!

القلم: إنك لا تحتاج إلى تَغيير شيء كبير في حياتك لتحصل على حياة جديدة!

مرت لحظة صمت وإذا بالقلم يكمل:

القلم: إن حياة الإنسان بما فيها من أحداث وتفاصيل ما هي إلا سلسلة مرتبطة بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً لا يمكنك الفصل بين حلقاتها، بل إن أدق التفاصيل وأتفه الأحداث هو في الواقع حجر أساس في بناء أحداث حياتك وماضيك ومستقبلك.

العقل: لتغيير الماضي قد نحتاج تغييرًا كبيرًا في خياراتنا الأُوَلي؟!

القلم: على العكس، لتغيير الماضي، بل ولتغيير الحاضر والمستقبل أيضاً، ما عليك إلا أن تحدث أي تغيير، أي تغيير، بسيطًا كان أم كبيرًا، فقط أَحدِثْ التغيير في تلك السلسلة، وسترى أن كل شيء قد اختلف، الماضي كله سيتغير، وسيتغير معه الحاضر والمستقبل، غَيّر فقط حجرًا واحدًا في أحد جدران بناء الماضي، وستستجيب كافة الجدران لذلك التغيير، وسيتغير المبنى كله بالكامل، كل شيء سيتغيّر، سيصبح مبنى مختلفًا، وسيتغير معه كل شيء، كل شيء، حتى أنت نفسك

ربما ستصير شخصاً آخر غير الذي أراه الآن، ولتعلم أن حياة أناس آخرين غيرك سوف تتغير وتتشكل لتستجيب لذلك التغيير الذي أحدثته في حياتك!

العقل: تقصد العائلة والأصدقاء؟!

القلم: أكبر وأشمل من ذلك، كما أن أحداث حياتك متشابكة، ترتبط حلقاتها بعضها ببعض، فإن حياة أُناس آخرين قد لا تعلمهم أنت سوف تتأثر للتغيير الذي استحدثته أنت في حياتك، ربما ستؤثر في حياة كل من تتعامل معهم وتغير في حياتهم دون أن تدري، إنه نسيج بشري واحد، يستجيب بعضه لبعض ويؤثر بعضه على بعض، عدد لا نهائي من العوامل المؤثرة التي تملكها وتُحدثها دون أن تدري فيمَن تؤثر وعلى من سيقع التغيير!

العقل: لا أدري ربما تكون محقاً، غير أنني أريد أن أُغير شيئا حدث لي منذ عشرة أعوام!

القلم: عشرة أعوام؟! وتريد تغييره؟!

العقل : ولم لا؟!

القلم: كيف تحملت نفسك كل تلك السنوات؟!

العقل: أنت من قلت إننا لا نستطيع تغيير الماضي!

القلم : بل تستطيع إحداث تغيير..

العقل: أتحدث عن الماضي!

القلم: ليس هناك فروق بين مُسميات الزمان، فالزمان شيء متغير،

تستطيع تشكيله والعبور منه إلى الماضي والمستقبل، قد لا تحدث تغييرًا في الماضي، ولكنك تملك قرارات الحاضر والمستقبل لتعديل مسارك الحالي.

العقل: كفى فلسفة واتركني لأنام!

القلم: عذراً .. عندي سؤال.

العقل: تفضل!

القلم: لم تخبرني عن الشيء الذي تود تغييره في الماضي؟!

العقل: لا شيء!

القلم: بل تود أن تخبرني؟!

العقل: أجل .. لو عاد الزمان إلى الوراء فلن أُغير أي شيء سأترك كل شيء كما هو، ربما فقط سوف أُثَمن قيمة وقتي بطريقة أفضل!

القلم: ذلك قد يحدث تغييراً كبيراً في كل شيء.

العقل: نعم.. قد يحدث.

القلم : لا تزال الفرصة أمامك اليوم.

العقل: نعم!

القلم: ماذا ستفعل الآن؟

العقل: اتركني الآن .. أحتاج إلى النوم.

القلم: أراك قريباً!

ـ على المقهى ـ

لم يكن هناك وحده...

ـ على المقهى ـ

يَحسبه مَن يَمر به أنه يجلس بمفرده صامتاً لا يتحدث، غير أنه لم يكن هناك وحده؛ فقد كان يجلس بصحبة ملاك وُكل له برحمة، وشيطان سُلط عليه بعذاب، في ذلك المقهى القريب من عمله جلس وأخذَّ يختلس النظر فيمن حوله من الجُلوس، وإذا بشيطانه يوسوس له :

الشيطان: لماذا خلقك الله؟ ما الجدوى من وجودك؟ لم تُخَير في وُجودك من الأصل، الحياة مليئة بالمتع والدين يملأ الحياة بالقيود، أولا تريد الاستمتاع المطلق بالحياة؟!

الملاك: لقد حققت أهدافًا كثيرة في حياتك، وهو ما يجب أن يُشعرك بالرضا، لا أعتقد أن الدين قد وُجِد لكَبت الحريات، وإنما جعله الله شريعة لتنظيم الحياة والتعامل بين الإنسان والكون في مُجمله، وليس هناك تعارض بين الدين وتعاليمه وبين ما هو متاح من متع الدنيا، بل طلب الله منك صراحةً ألا تنسى نصيبك من الدنيا، إنما يُحاول الشيطان أن يربط في عقلك بين المتعة والمعصية، ومن هنا ترى الدين قيودًا، وترى المتعة فقط لا تتأتي إلا بمعصية، يمكنك أن تستمتع بحياتك كما

تشاء ولكن من دون أن تعصي الله.

الشيطان: إنك لا تريد الدخول في هذا الصراع النفسي، فأنت لم تُخير في الوجود منذ البداية، ولو خُيرت في الوجود فربما ترفض فكرة حياة الإنسان من الأساس.

الملاك: إذا افترضت معك أَنك لم تُخير في وجودك من الأصل، وأن ما حدث قد حدث، فأمامك طريقان؛ الأول أن تمكث في حسرة ولوم، والثاني أن تُقر بما هو كائن ولا تُضيع حياتك في الحسرة، فابدأ حياتك ولتملأ الدنيا بما وهبك الله به من طاقات ونَعم وعقل فَضّلْكَ به على سائر خلقه.

أخذ الشيطان يوسوس له ويُذكره بلذات تَذوقَها ونزوات مر بها في أيام كانت في الحقيقة أيام ظلم، أجل أيام ظلم، ظَلَم هو فيها نفسه قبل أن يَظلم غيره.

تنبه الملاك لتلك السَّكرة التي مر بها الشاب وهو يذكر أيامه الخوالي فصاح فيه:

الملاك: يا خير خلق الله، أتذكر ما آل إليه حالك بعدما اقترفت تلك الذنوب؟ أتذكر ألمك وبكاءك؟ أتذكر حسرتك ودعاءك إلى الله؟ أوإن كان في الذنوب لذة عابرة أوليس فيها ألم يبقى وحسرة تدوم؟! أتذكر يا خير خلق الله ما شعرت به بعدما صنعت من الخير وما وُفقت إليه من العمل الصالح؟ أتذكر رضاءك وسلامك؟ أوتذكر ثقتك حين واجهت الصعوبات فكنت ساعتها مطمئنًا فقط لأن الله معك؟!

أخذ الملاك يذكره بكل خير فعله، وتلك السكينة التي غمرت نفسه وما تزال هناك يستشعرها بين الحين والآخر.

ارتاحت نفس الشاب واطمأنت لما أسر به ملاك الرحمة، وعزم أن يبدأ وأن يحاول من جديد، غير أن شيطانه بادره:

الشيطان: تعلم كم مرة حاولت فيها وفشلت؟! مئات بل آلاف المرات، مطلع كل يوم تطلق الوعود وتفشل كل يوم، أجل تفشل وستفشل!

الملاك: لتعلم يا خير خلق الله، أن الله يحب توبة عبده ولو أن بينك وبين الموت لحظات، لتعلم أن الله يفرح بتوبة عبده، ولو لم تخطئ لأتى الله بقوم يخطئون ثم يستغفرون الله فيغفر لهم.

انتبه حين علا صوت أذان المغرب.. وكان لا يزال شارداً بعيداً هناك بصراعاته.

ـ سناپ شوتس ـ

لقطات من الحياة

نحن لا نرى فيمن حولنا إلا لقطات، أجل لقطات من حياة لا نعلم عنها شيئا، فيقف العقل عاجزا عن إدراك القصة كاملة، بينما يختزل القلب الحياة كلها في تلك اللقطات.

ـ سناپ شوتس ـ

أنبوبة بلاستيكية

أغلق باب الغرفة، لم يتمالك نفسه، وانهار في البكاء.

أجل إنها الحياة التي لا يعرفها!

ارتفعت الأصوات في المبنى الإداري بالمستشفى، حادث تصادم بالطريق الدائري نُقل على أثره المصابون إلى الاستقبال والطوارئ، هرولة في ممرات المستشفى، مدير الاستقبال يرفض دخول المصابين، المستشفى غير مجهز لاستقبال الحالات، والأطباء يخشون حدوث وفيات، الدم الساخن يملأ الأرض، صوت آهات مكتومة وكأنه قُدر للأرض أن تستقبل ما لفظته المستشفى بعيداً عن أبوابها، حاولت إسعاف الشاب، كنت أسابق الزمن والعرق يغمرني وأصارع الدنيا لإنقاذ ذلك الشاب، لكن روحه أبت إلا أن تصعد إلى بارئها، تعلقت عيناه بعيناي وهو يلفظ آخر أنفاسه، لم يكن هناك من يوفر أنبوبة بلاستيكية لفتح ثقب في القصبة الهوائية لإسعاف ذلك الشاب، أجل هذا هو السبب .. أنبوبة بلاستيكية!

كان هذا عهدي الأول بالعمل كطبيب، أذكر ذلك اليوم وكأنه قد

حدث بالأمس...

مضت خمسة عشرة سنة، شاهدت فيها الكثير، غير أني وفي كل مرة أحاول إنقاذ مريض أو أُجري عملية جراحية، أرى عيني الشاب تنظر إلي وكأنه يراقبني، كان هناك حديث يدوربأعيننا، كنا في نفس العمر تقريباً، وكان هناك رجاء وأحلام وأمل!

ـ سناپ شوتس ـ

بين جُدران الكنيسة البطرسية

إلى أرواح الأمهات والأطفال .. وكل من صعد إلى السماء.

ـ سناپ شوتس ـ

(١)

بين جُدران الكنيسة

«يا رب حافظ على ولادك، نَّور طريقهم، قربهم ليك واعطيهم نعمة وسلام».

هكذا كانت تتمتم في دعائها وعيناها لم تُغادر مذبح الكنيسة، تحسست برفق طفلتها وقد غلبها النعاس، فأراحت جسدها على مقعدها الخشبي وأسندته بساقيها وهي تقف للصلاة، لا تزال تذكر كسلها وضحكها وهي تُوقظها منذ ساعة للذهاب إلى القُداس.

صدى صوت جرس الكنيسة يتردد بأُذنيها، لا تزال تذكر الدعاء وترديده بلا إرادة منها، اندفعت تحتضن ابنتها، علا الصراخ، طعم الدم، خطوات أقدام تطأ جسدها.

صعدت إلى السماء.. صعدت ومعها طفلتها.. صعدت هي وبقينا

جميعاً!

ماتت وكشفت عن عواراتنا!

ماتت ولكن لم يمت دُعاؤها!

صَلت للجميع، وسنصلي ولن تنقطع صلاتنا لها يوماً.

ـ سناپ شوتس ـ
(٢)
بين جُدران الكنيسة

أنَّت جُدران الكنيسة بالبكاء، وكان فراغ القلوب عظيمًا.

– أنا عايزة أروح أعمل الغدا للبنات .. زمانهم جعانين!

«هذه النفس التي اجتمعنا بسببها .. يا رب نيحها في ملكوت السموات .. افتح لها يا رب أبواب السماء .. وأقبلها إليك كعظيم رحمتك .. افتح لها يا رب باب البر لكي تدخل وتتنعم هناك .. افتح لها يا رب باب الفردوس كما فتحته للص اليمين»..

– أنا اتأخرت .. لازم أروح .. لسه في غسيل، وهأوصل «فبروينا» لدرسها!

«افتح لها يا رب باب الملكوت لتشارك جميع القديسين .. افتح لها يا رب أبواب الراحة لترتل مع كافة الملائكة».

- يا رب .. نفسي أشوف «مارينا» عروسة وافرح بيها، يا رب إنت عارف أنا تعبت قد إيه في تربيتهم، ارزقها الزوج اللي يحبها ويحافظ عليها!

«ولتستحق أن تنظر النعيم .. ولتدخلها ملائكة النور إلى الحياة .. ولتتكئ في حضن آبائنا إبراهيم وإسحق ويعقوب .. اغفر لها خطاياها التي سبقت .. فصنعتها بمعرفة وبغير معرفة معاً .. لأنك أنت يا رب تعرف ضعف البشرية ونقصها».

- يَا رَب قرب مارينا وفبروينا ليك .. واعطيهم نعمة وسلام!

«وأهل بيتها ألهمهم صبراً .. وعوضهم أجراً صالحاً سمائيا».

لم تكن تسمع صوت صلاة الكاهن، لم تكن ترى شيئا، لم تكن هنا في هذه الساعة، كنا نرى صورة لها، أما روحها فقد صعدت مع ابنتيها إلى السماء.

ـ سناپ شوتس ـ

عين الملاك

ـ سناپ شوتس ـ

(٣)

حين ستلتقي عينك بعين الملاك، ماذا تقول له؟

تجاوزت سرعة سيارتنا ١٦٠ كم في الساعة، ونحن في الطريق ما بين فندق هلنان الفيوم إلى قلب الصحراء، حيث سنقضي ليلة كاملة في خيام أعدت لنا في الصحراء، كانت هذه علاقتي الأولى بالصحراء، فيما مضى كنت فقط أطلق العنان لعقلي وروحي وأنا أسافر وأنظر إلى الصحراء من حولي، أما اليوم فسوف أمضي ليلة كاملة هناك، حرصت على أن أُفرغ بطارية هاتفي حتى لا يصل إليَّ أحد، وأَحيا التجربة كاملة وحدي في الصحراء، علا صوت موسيقى الچاز للعبقري يحيي خليل، وكعادتي في تلك اللحظات أشرد بعيداً أفكر في السماء وفي الأرض وما فيها من الحياة، فلطالما شغلتني فكرة الحياة، إن في قبضة واحدة من تراب أرضنا مئات بل آلاف المخلوقات التي لا نراها بأعيننا، إن روح الله تملأ الأرض، روح الخالق وأنفاس خلقه تملأ المكان.

انتبهت على صوت صديقي:

- كلمات الأغنية دي بتقول: «حين ستلتقي عينك بعين الملاك، فماذا ستقول له؟!» يعني لما تيجي تموت، وتبص لعين ملاك الموت، هتقول له إيه؟ هتقول له إنك اتبسطت ولا لأ؟!

- قلل سرعتك يا معلم لحسن ما نلحقش نبص حتى في عينه؟!

انسجم كلانا مع الموسيقى حتى وصلنا إلى الخيام، كانت ليلة رائعة، امتلأت فيها السماء بالنجوم، وهو ما لا أراه عادة في سماء القاهرة، أحسست بسلام نفسي وتذكرت أيام الجامعة حين قال أحد زملائنا، وكان قادمًا من العريش ليلتحق بجامعة القاهرة:

- أنا مش عارف إنتو عايشين إزاي في القاهرة! أخلص بس الكلية والله الغني عن القاهرة!

استيقظت قبل الفجر فوجدت العمال القائمين على خدمة الخيام قد افترشوا الأرض وأوقدوا نار التدفئة وراحوا يغطون في نوم عميق!

كنا جميعاً نائمين ما بين عامل قد أنهكه عمله وبين مستمتع أتعبه السفر والاحتفال، نظرت مجدداً إلى السماء وأشعة الشمس تتسلل ببطء لتشق ظلام الليل وتُنبئ بميلاد يوم جديد، أصررت أن أشارك عامل الشاي والقهوة عمله، في الصباح ضحكنا سوياً وذهبت أحزم حقيبتي وعدت أفكر: «حين ستلتقي عينك بعين الملاك، ماذا تقول له»؟!

ـ سناپ شوتس ـ

سيدة الزمان

ـ سناپ شوتس ـ
(٤)
سيدة الزمان

يتذكر حين أمسكت بيده تعلمه كيف يُمسك بالقلم، يتذكر رسمها لأحرف الهجاء على شكل نقاط ثم تَدْفَعه أن يجري بقلمه فوقها تعلمه الكتابة، يذكر تقبيلها له، يذكر كل شيء فهي كل شيء، ملكة حياته وسيدة زمانه!

***

مضت خمسة وأربعون عاماً، شغلته فيها الحياة، أحب .. تزوج .. أنجب .. حَزن لموت صديق له .. كبر أبناؤه .. حقق أحلامًا له ولا تزال هناك أحلام أخرى يسعى إليها.

***

في تلك الليلة زار والدته وإذا بها تبادره:

الأم: أعطيت اليوم الخادمة أربعة قروش..

الابن: تقصدين أربعة جنيهات؟

الأم: أربعة قروش!

الابن: أمي .. لا توجد قروش في هذا الزمن .. تقصدين أربعة جنيهات؟

الأم تنظر إليه بدهشة .. وتمر لحظة من الصمت، لم يكن يدرك أن أمه لم تعد هي نفس الأم التي تعود عليها، لم تعد تلك الشابة اليافعة، أسرعت الحياة به ولم يتنبه لآثار الزمن، بل لم يعي أن الزمن قد ترك أثره عليه هو نفسه!

مرت لحظة صمت طويلة، كسا وجهه انكساره، لم يكن يعلم كيف يجيب وماذا يفعل! نهض من مكانه يبحث في أرجاء البيت في هدوء.

الأم : ماذا تفعل؟

الابن: أبحث عن ورقة وقلم.

أخذ يكتب أرقامًا؛ الآحاد، العشرات والمئات، جلس بجانبها يعلمها أساليب الحساب، لا يريد أن تبدو عليه أي علامة من علامات الارتباك، جلس بجانبها كجِلسة كانت هي فيها المُعلمة وكانت عيناها تمتلئان بدموع فرح!

واليوم تمتلأ عيناه هو بدموع رحمة.

- سناپ شوتس -

عملة معدنية

ـ سناپ شوتس ـ
(٥)
عملة معدنية

لم يُفلح الوضوء في تنظيف يَديه ووجهه، دخل من باب المسجد ولا تزال قطرات الماء تتساقط من حوله، ملابسه رثة، ربما تخطى الخمسين عاماً بقليل، يبدو عليه الإعياء غير أنه وقد جلس القرفصاء أخذ يصغي باهتمام بالغ إلى خطبة الجمعة، يداه تُخبران الكثير من قصص الحياة، لعله يعمل بأحد المصانع، أو ربما هو مزارع بسيط من قرية مجاورة.

***

تنبهت حين سأل إمام المسجد المصلين بالتبرع لإصلاح دورة مياه المسجد، أخرجت حافظة النقود وحاولت إخفاء ما أراده الله ليّ بالتبرع، غير أن يدًا أخرى قد امتدت تسبقني إلى صندوق التبرعات، تبرع بعملة معدنية أحدثت صوتًا حين ارتطمت بالصندوق الخشبي!

مكثت لدقائق قلائل أفكر في ذلك الرجل وقد انشغلت عن الإمام وعن خطبة الجمعة، لقد رأيت في قبضة يمينه على العملة المعدنية سكون نفسه ونقاء روحه.

رأيت الإخلاص، رأيت الرضا، واستشعرت الرجاء، يقول تعالى:
"وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُون ».

ـ سناپ شوتس ـ

وسط البلد

ـ سناپ شوتس ـ
(٦)
وسط البلد

الزمن قد توقف، كل شيء تجمد في مكانه، وحدها الأيام تمر الآن أمام عيناي وتسابق قدماي وأنا أسير في ذلك الشارع!

هربت من المدرسة أنا وأصدقاء لي لندخل السينما! أجل كان هنا في هذا الشارع، رأيت نفسي ولم أكن قد تجاوزت الثالثة عشرة من عمري، رأيت خوفي حين عدت إلى البيت، وجلست إلى الطاولة أنتظر العشاء، ثم قررت فجأة أن أخبر أبي بكل صراحة بأنني ذهبت اليوم إلى السينما ولم أذهب إلى المدرسة، تذكرت حين لمعت عيناه بفرحة لم يُخفها، فلقد أدرك أن ابنه لم يعد طفله الصغير بعد!

لا أدري لم تعاودني كل تلك الذكريات وأنا أسير الآن في ذلك الشارع، ربما ما مضى من سنوات طوال، الماضي كله يمر الآن أمام عيني .. لا

أدري.

***

«دابل إسبريسو من فضلك .. وإزازة ميه صغيرة!»

بادرت النادل في مقهى الأمريكين وأخذت أقلب بين صفحات كتاب أمسكه، لم أكن أقرأ ساعتها ، كنت فقط أجلس لأستعيد ذكرياتي في ذلك المكان، أنظر إلى النادل، أعرفه جيداً وهو لا يعرفني، فما أكثر من جلس في هذا المقهى! ظهرت علامات العمر واضحةً على وجهه ولكن لم تغادره الابتسامة.

اقترب من طاولتي بينما كنت أنظر إلى وجهه وقد رسمت الحياة عليه الكثير من القصص والحكايات!

غادرت المكان وما زال الزمان يُسْكِرُ عقلي!

***

- إنت قلت لها إنك بتحبها؟!

- أيوه.

- وقالت لك إيه؟

- ضحكت!

- تعالى ناكل آيس كريم .. ونكمل كلام وإحنا ماشيين.

هنا بعد أن انتهى يوم من أيام الكلية أخذنا نثرثر ليخبرني صديقي بقصة حبه، لا أعلم كيف انتهت القصة، ولكن أذكر أننا كنّا يوماً هنا نتسكع في شوارعك يا مَصْر!

***

مَصْرُ

لم أكن أدري أني أحبك بهذا القدر!
يئست من حبك، وما أزال أحبك!

ـ في دبي ـ

نتعجب حين نفعل أشياء اعتقدنا يوماً أننا أبداً لن نفعلها!

ـ في دبي ـ

في «دبي» الحياة تبدو رائعة لمن لم يخض تجربة الحياة والعيش بمفرده هناك، حياة تجمع ما بين الشرق والغرب، فكانت دبي ملاذها الآمن والموطن المناسب لرحلة بحثها الطويلة!

سبع سنوات كاملة مرت، لم تكن تكرهه يوماً فيها ولكنها كانت مشغولة عنه! شغلها بحث آخر غير الحب، بحث فيه شقاء وحيرة وتيه نفس، بحث عن الذات، عن كيانها، وعن «قدرها».

لطالما تساءلت هل كُتب لها قدر ستلقاه يوماً لا محالة؟ فما عليها إلا أن تعيش كغيرها لترى ما هو مكتوب لها وما ستفعله بها الحياة.. أم أنها هي من تصنع قدرها بنفسها؟

***

- سمر .. أنا بحبك! (لحظة صمت).

- ما لك؟ في إيه؟ ليه محسساني إنك اتفاجئتي؟ يا سمر.. أنا بحبك من

واحنا عيال صغيرين.. من أيام المدرسة، وأكيد إنتي حاسة بكده!

- يوسف .. إنت أقرب إنسان ليه، بس أنا ما بفكرش في الحب والارتباط دلوقتي خالص، والصراحة يا يوسف .. أنا حاسة إني مش عارفة يعني إيه حب أصلاً، ولو فكرت أحب، عايزة أحب حد مختلف، مش عارفة أوصف لك إزاي .. بس أنا عارفة إنك هتفهمني، إحنا أصحاب من أيام زمان .. وده اللي مخليني أتكلم معاك بصراحة! يوسف .. إنت كل شيء في حياتي دلوقتي، بس أنا مش لاقية حياتي أصلاً! أنا تايهة مش لاقية نفسي ، ومش عارفة أنا عايشة ليه أصلاً؟ وعلى فكرة .. أنا مسافرة دبي ومش هعيش في مصر تاني!

***

على الرغم من نشأتها في مجتمع شرقي، يرى المرأة بعين وضعت فوقها نظارة من العادات والتقاليد والقيود، تمردت منذ طفولتها على كل تلك التقاليد، وفور وصولها دبي أسلمت نفسها لحياة خالية من أي قيد.

***

نتعجب حين نفعل أشياء اعتقدنا يوماً أننا أبداً لن نفعلها!

راحت تروي ظمأ نفسها من كل متع الدنيا وقد كسرت كل القيود.. ربما لم تكن تفعل ذلك تمرداً منها على عادات وتقاليد المجتمع.. ربما كانت تبحث عن إجابات لأسئلتها.. ربما كانت تبحث عن القدر أو تحاول هي خلقه بيديها!

أقامت مع صديق لها كانت قد تعرفت عليه.

في دبي، بهرتها حياته؛ فلقد كان يعمل في مجال السياحة، يسافر بين الحين والآخر، يأخذها معه في معظم أسفاره، أعجبتها تلك الحياة، لطالما حلمت بالترحال والسفر، أعجبها أيضاً حبه للحياة وشغفه بالاستمتاع بها، كان يحتاج إلى جميلة مثلها، وكانت تحتاج هي إلى الحياة.

***

لن نصدق أحداً يوماً إذا أخبرنا أننا سنفكر في الانتحار!

في تلك الليلة فكرت في الانتحار .. لقد كرهت كل شيء، كرهت نفسها، تذكرت حين جاءت هنا إلى دبي قبل سبع سنوات كانت ببراءتها، أما الْيَوْمَ فما عادت هي نفس الشخص، كل شيء تغير بداخلها، زهدت حياة الترحال، زهدت السفر، كرهت تلك الحياة التي لا تستقر على شيء، شعرت بالتيه يملأ كيانها، ما كان يسعدها بالأمس لا يحرك الْيَوْمَ لها ساكنا.

في هذه الليلة بعينها تذكرت يوسف، لقد قطعت كل شيء يربطها به منذ أن غادرت مصر، ربما كان عليها أن تبدأ معه الحياة، لم تبهرها حياته ولَم تنتبه لحبه لها، ربما قطعت كل صلة به خشية أن يعرف تفاصيل حياتها الجديدة، ربما تريد أن تُبقى صورتها الأولى، صورة البراءة وصفاء روحها هناك في مكان بعيد لا تدنسه بحياتها الجديدة، على الرغم من عدم وجود يوسف بحياتها طوال تلك السنوات فإنها تشعر بشيء غريب حين تمر ذكراه برأسها، تشعر بخجل من مواجهته، لَم تستطيع تفسير ذلك الإحساس وهو بعيد عنها زماناً ومكاناً، ولكنها اتخذت قرارها أخيراً.

***

القاهرة – السبت – الثامنة صباحاً

يستيقظ يوسف على طرق باب منزله .. كثيراً ما تمر الثواني كمرور سنوات طوال .. قد لا يدرك العقل ما تراه العين!

وقفت سمر أمام الباب وهي تحمل حقيبة لها، وقفت والدمع يملأ عينيها، وقفت تبكي حياتها وسنوات عمرها، تبكي وهي تنظر إليه!

لم تُحدثه كثيراً في ذلك الْيَوْمَ دخلت غرفة وأغلقت بابها، ربما أرادت أن تخلد لنوم تُريح به عقلها وجسدها، لقد ودت لو أنها كانت تحلم ولَم تمض تلك السنوات السبع.

استيقظت من نومها لتجده جالساً بشرفة غرفة المعيشة، كان يدخن سيجارته وهو ينظر إلى الأفق وغروب شمس ذلك الْيَوْمَ، لطالما تمنى أن تكون معه قبل ذلك بسنوات، لطالما حلم بها هنا بين تلك الجدران، لقد رأى فيها حياته وقدره!

رأى عمره وحلمه، لم ير أخرى، بل رأها هي فقط حلم طفولته وحبه الأبدي.

- تتجوزيني يا سمر؟
- يمكن لو حكيت لك إنت اللي ما توافقش يا يوسف!
- مش عايز أسمع حاجة.
- إنت ليه ما اتجوزتش لحد دلوقتي؟

مضت ساعتان لم يتوقف عن الكلام، مضى يروي حياته، يثرثر كما كان

يفعل من قبل حين يراها، يتكلم ويتكلم في كل شيء، روى لها كل أيامه، بل عاشت تلك الأيام بين حكاياته، ولَم يذكر اسمها قط، لم يذكر احتياجه لها، لم يذكر وحدته، لم يذكر عنها شيئا.

– يعني عمرك ما فكرت فيه المدة دي؟

– سمر .. إنتي كنتي معايا في كل يوم، في كل لحظة، سمر .. أنا حاولت أوصل لك بكل الطرق، وعرفت إن إنتي اللي عايزة تبعدي، هتصدقيني لو قلت لك إنك كنتي معايا السبع سنيين دول؟

لم تستطع إيقاف دمعها وهو يحدثها، لم يتغير، ظل هو كما كان عليه قبل سنوات، ربما لم يسع إلى «قدر» بعينه، أو ربما قد صنع «قدره» واختار حياته، ولكن دون أن يدري!

ـ يهوذا ـ

لم يمت بعد!

ـ يهوذا ـ

طاردته شياطين الأرض، التقت عيناه بأعينهم، ارتعش جسده من مسهم له، حَلت عليه لعنات السماء والأرض، كيف فكر في ذلك الشر؟ تخطى كل شيء!، خان البشرية كلها، خان المسيح وسَلَّمه!

ارتجف جسد يهوذا! وها هي الأرض قد ضاقت عليه، النيران تملأ المكان، لم يعد يرى إلا الجحيم، التفت الشياطين من حوله، علا صراخهم ليصم أذنه، نفذت أصواتهم لتُسْمِع أحشاء جسده، صرخ فلم يُسمع له صوت!

الشيطان: لم تَخن المسيح! لقد أخبرت اليهود بما رأيت، أخبرتهم بما كان يفعل المسيح، ألم يكن هو من جالس الخُطاة والزناة؟ ألم يتقرب إليهم؟ لقد أزال الفوارق بين العامة وسادة القوم، إن تعاليم دينه لتتنافى وتعاليم اليهود وتقاليد أحبارهم! لا ذنب لك، لقد اتَخَذُوا قرارهم فيه! لم تكن أنت صاحب القرار، لقد كنت تتحدث إليهم فقط، كنت تشاطرهم ما

رأيت من المسيح، وتخبرهم بأمره، هم من فعلوا واتخذوا قرارهم وليس أنت!

الملاك: بل أنت من خُنت المسيح، من سَلّمّت المسيح، من أعطيت الإشارة لهم!

يهوذا: أجل .. إنهم اليهود! هم من فعلوا فعلتهم، سواء أرشدتهم أو لم أرشدهم إليه فإنهم سيصلون إليه لا محالة!

الشيطان: صدقت!

الملاك: أنت من خنت بمحض إرادتك، وأنت من أرشدتهم، لا تتنصل من فعلتك!

الشيطان: حتى ولو أمسك اليهود به، فلو أراد هو النجاة لفعل، فهو يقدر! فلا ذنب عليك!

الملاك: يا من تجاوزت خطايا البشر جميعاً، كيف اطمأنت نفسك وأنت تخون المسيح؟ المسيح من غمرك بعطفه وحنا عليك، من قربك إليه .. كيف تخون من رأيت منه ما لم ير غيرك؟! مَن سامح، ومَن جاء للبشرية بالسلام والمحبة؟!

يهوذا: لم أخنه! لم يخطر لي ببال ما قرره أحبار اليهود، لقد كنت فقط أتحدث إليهم بما رأيت من المسيح!

الملاك: بل فعلت وسلمته لهم !

الشيطان: ليس ذنبك..

الملاك: أنت الخائن.

الشيطان : لم تخن!

تصارعت الأفكار برأسه، كاد أن ينفجر دماغه، سمع صراخ الشياطين، شعر بالغثيان، ضاقت الأرض؛ كلما هرب من مكان رأى الشياطين تطارده فيه، بل سمع عواء ذئاب تلهث وراءه، لا يعرف أين يهرب، شنق يهوذا نفسه ليريح جسده، أما روحه فلن يريحها أي موت!

***

عجبت حينما قرأت عن يهوذا الإسخريوطي، وكان من تلاميذ المسيح، تعجبت من فعلته، بل تساءلت كيف ارتاحت نفسه واطمأنت لتلك الخيانة؟ حاولت أن أعيش تلك اللحظات قبل أن يشنق نفسه، كيف كان يحاور نفسه وكيف التفت الشياطين من حوله، كيف رأى الجحيم وقد يئس من الغفران، لا بد أنها أسوأ لحظاته بل أسوأ لحظات إنسان خائن!

يهوذا الإسخريوطي خائن المسيح!

ـ زير النساء ـ

هكذا مضت سنوات عمره الأخيره في عزلة لا يخالط أحدًا، ندر كلامه حتى ظن الناس أنه ما عاد ينطق! عُرِفَ بين أصحابه بزير النساء! وعُرِفَ بين النساء بحيوان تملكه غريزته، لا يحب إلا نفسه، إلا واحدة فقط لم تكن تراه كذلك!

ـ زير النساء ـ

لطالما بحث عن الحب، تفوه بكلمة «أحبك» عشرات المرات، ولم يكن ساعتها يشعر بشيء سوي ذلك الشعور بالسعادة والتعلق بالآخر، لم يكن يخدع إحداهن ساعتها، كان ينطق فقط بما يشعر به، ويظن أن تلك الحالة هي «الحب»، بل كان يتعجب من نفسه حين يقع في «حب» جديد بينما قلبه لا يزال عالقاً بأخرى!

أربعة لقاءات على الأكثر هي ما يحتاج إليه ليصل إلى كل شيء، فلصدق كلماته فعل السحر على قلوب معشوقاته، شيء آخر كان له فعل عجيب بينهن؛ ألا وهو حبه للحياة!! أَحب الحياة بكل ما فيها، بل تحسب أن الحياة نفسها تنبض بين حركاته وفي سكناته، كان في صراع دائم مع الوقت فهو يريد أن ينعم بكل متع الدنيا!

***

أراحت رأسها فوق صدره، أغمضت عينيها وهي تسمع نبضات قلبه

المتسارعة، كان صامتاً على غير عادته، ففي كل مرة يحدث بينهما ذلك اللقاء ينطلق لسانه بالثرثرة في موضوعات عديدة، يتحدث بحماس بينما تُداعب أنامله خصلات شعرها، لم تكن تُنصت لما يقول، كانت فقط مشغولة بتأمل حبيبها وهو يثرثر!

أما هذه المرة فقد ملأ الصمت كيانه.

- محمود؟ ما لك؟!

- مفيش!

- إنت متغير ليه؟!

- سارة.. خايف أتكلم! مش هتفهميني!

- في إيه؟!

- إحنا لازم نبعد عن بعض!

- نعم؟!

- أنا .. أنا بحب يا سارة!

- بتحب؟! دا انت لسه قايل لي بحبك من دقيقة! ولا الحب بس عندك على السرير؟!

نهض من فراشها وشرع في ارتداء ملابسه وهي تُتابعه في ذهول، لم يدرك أثر ذلك الجرح الجائر الذي أحدثه في قلبها، لامت نفسها ملايين المرات في ثوان كان هو يُعدل فيها من ثيابه، حيث مضي من غير رجعة!

لم يكن يدرك ساعتها أن المرأة إن هي أحبت يوماً فإنها تختزل الحياة كلها في من تحب، يتلاشى الكون ويبقى هو، يبقى هو فقط كونها الأوحد!

***

- إنت إزاي كده يا محمود؟!

- إزاي يعني؟!

- إزاي جميل كده؟!

- ندى.. مش عارف أقول لك إيه بس .. من ساعة ما عرفتك وجوايا حاجة متغيرة! على طول عايز أشوفك وأتكلم معاكي .. الظاهر أدمنتك ولا إيه؟!

- إحنا مش اتفقنا إن ما فيش حب؟! أصحاب وبس؟!

- إيه جو القلش ده؟! مين اللي قال إني بحبك أصلاً؟!

علا ضحككهما وكلاهما يعلم أن العلاقه تنمو، تسارع الزمن وتكسر الوعود، كلاهما يتجاهل أو ربما يهرب من واقع يحبه ويخشاه!

كانت ندى منذ لقائها الأول تضع دبلة في إصبع يدها اليمنى، وعلم بعدها محمود أنها إنما تفعل ذلك لتبعد الرجال عنها، ولتُوهم الجميع أنها على وشك زواج قريب، أما هي فليس هناك أحد في حياتها، بل لا تريد الارتباط بشخص يفرض قيوده كما يفعل الرجل الشرقي، تريد أن تعيش حياة حرة من غير قيود، وربما ذلك ما جعلها مختلفة في عين محمود، كانت تشاركه كل لحظات حياته، أعجبها جنونه وشطحات عقله، أخذت تقاوم وتقاوم ذلك الشعور بالانجذاب له حتى خارت قواها واستسلمت وانتبهت وهو يهمس في أذنها:

- بحبك يا ندى!

***

كانت بحق أجمل سنوات عمره، وكانت تلك السنوات الثلاث هي الحياة كلها بالنسبة لندى، شاركته كل شيء، حفظته عن ظهر قلب، تستطيع أن تتنبأ بضحكاته، بأفكاره وتعليقاته الساخرة، بهرها شغفه بالحياة فانطلقت تروي ظمأ حرمان دام معها لسنوات!

ما عاد يشعر بوحدته، هي وحدها من استطاعت أن تملأ فراغ نفسه وحياته، ملأت كل شيء، تعجب فهي لم تسأله يوماً أو تطالبه بالزواج ولو على سبيل المداعبة! وكأنها لا تريد أن تفسد حياتها بالحديث عن ذلك الموضوع!

***

أمام شباك تذاكر دار الأوبرا المصرية وقفت ميرام وقد تأنقت كعادتها، ونسمات صيف يوليو تداعب خصلات من شعرها فتمد يدها لتصلحه بعفوية وهي تبتسم لصديقاتها، كانت فاتنة بحق، وقع نظر محمود عليها منذ اللحظة الأولى، تقدم أحمد، وهو صديق محمود المقرب، ليُعَرف ميرام بمحمود وبقية أصدقائه، لم يكن يعلم أن تلك الليلة ستكون الفاصلة والمغيرة لحياة صاحبه!

أربعة لقاءات كان لها كل الأثر، تعلق فيها محمود بحبه الجديد، انجذب إليها بسرعة لم يكن يتوقعها، كان في كل مرة يلتقي فيها بميرام يختلق الأعذار لندى، كان كأنما يحلق حراً في السماء وهو بين يدي ميرام، يغمره شعور بالسعادة، لطالما راوده شعور التحليق هذا في أحلامه، لعل شغفه

بالحياة ورغباته الجامحة وصراعه مع الوقت كان وراء ذلك الشعور الذي ينتابه، فينطلق يثرثر ويثرثر، وكانت هي كصاحباتها تنظر إلى وجهه وهو ينبض بالحياة، تنظر غير مصغية، تنظر وهي تتأمل وجه حبيبها!

انتابه شعور غريب لم يستطع أن يجد له تفسيرًا، كان يمسك بهاتفه فور أن يترك ميرام ليتصل بندى، رغبة خارجة عن إرادته تدفعه لذلك، يريد أن يسمع صوت ندى وهي تقول:

- محمود .. إنت فين؟! وحشتني!

***

بينما هي تتأمل وجهه بادرته في هدوء:

- محمود!

- أيوه يا ندى؟

- اسمها إيه؟!

- هي مين؟!

- اسم حبيبتك الجديدة؟!

احمر وجهه وتسارعت دقات قلبه، مرت لحظات كانت كالدهر لا يدري بما يجيب، لا يريد أن يهدم علاقته بندى، بل لا يتصور الحياة بدونها، ولكن كيف لها أن تعرف؟!

لم يكن يعرف أن المرأة إن هي أحبت، فإنها تحب بكل حواسها وليس فقط بقلبها، شيء آخر بعيد عن كل منطق، شيء يكسر الحواجز والواقع والمنطق، شيء اسمه الحب.

- ميرام...

تجمد وجهها ثم أتبعت:

- بتحبها؟

- مش عارف .. بس والله يا ندى أنا كرهت نفسي بجد، أنا متعلق بيها وبردو بحبك يا ندى.. أنا حاسس إني تايه، والله يا ندى أنا ..

- محمود .. أنا مش زعلانة.

- نعم؟!

- أيوه والله مش زعلانة، وما تخافش .. إحنا هنكمل مع بعض!

- إنتي بتقولي إيه؟

- أيوه هنكمل .. بس هنبقى أصحاب وبس! ما فيش أي حاجه تانية.. هنخرج ونتكلم من غير ما تزورني في البيت ولا أنا أجي لك بيتك!

مضت لحظات وهو لا يعلم بما يجيب، كره نفسه، وأحس بالضياع، ارتدى ملابسه وهو لا يزال يكرر مبرراته ويتلعثم ويقسم بحبه لها وأنه لا يستطيع العيش من دونها و...

كانت تنظر إليه وهي تعلم أنها فقدت شيئا كبيراً بل فقدت كل شيء!!

***

في الليل تعاودنا الذكريات، ونستسلم لذلك الخدر العجيب، تصفو عقولنا فنرى الأشياء أكثر وضوحًا!

مضت الأيام ثقيلة وطويلة، وكان الليل هو أسوأ ما فيها، تعاوده ذكريات ندى بعد أن هجر محبوبته الأخيرة، لم يخبر ندى بشيء، احترم

رغبتها فندرت لقاءاتهما رغم أنها وعدته بأنها لن تقطع هي العلاقة، أحس بالجبن والخوف من مجرد التفكير في الاتصال بها.

لم ينم في تلك الليلة فقد عزم أمره على زيارة ندى في منزلها بكل شجاعة ليواجه الأمر ويحسم حياته، ألم يأن لسفينة نفسه وروحه أن ترسو!

تسارعت دقات قلبه وهو يصعد السلم وارتعشت يداه وهو يطرق الباب:

- ندى!

- محمود؟! إنت إيه اللي جابك هنا؟! محمود لو سمحت..؟

- ندى .. أنا بحبك وعايز أتجوزك!

تجمد وجهها وعرف الدمع أخيراً طريقه إلى وجهها أمامه بعد أن بكته وبكت نفسها أيامًا وشهوراً طوالا!

- ما ينفعش يا محمود!

- يعني إيه؟! هو إنتي ارتبطتي بحد؟!

- حد إيه؟ محمود أنا كنت خايفة أحب طول عمري، وأنا حبيت مرة واحدة .. واتجرحت مرة واحدة وخلاص!

- يعني إيه؟!

- يعني رجعت تاني لحياتي، أنا كنت مبسوطة معاك أوي، إنت كنت كل حاجة في حياتي، حقيقي أنا ساعة لما قلت لك مش زعلانة منك، أنا فعلاً ما كنتش زعلانة، أنا كنت زعلانة من نفسي، أنا حبيتك يا محمود من أول يوم شفتك فيه، وخلاص .. أنا رجعت تاني لحياتي يا محمود

(تتمتم والدموع تفيض على وجهها)، ومش هستحمل أي حاجة تانية، ما ينفعش خلاص يا محمود! بعد إذنك!

الفهرس

- طلب الصداقة 5
- تفاصيل 11
- الطائرة 17
- دعوة عشاء 25
- لوحه الموزاييك 33
- حضن الأرض 39
- 11ثانية 59
- الشيطان 65
- نسخة جديدة 71
- الشيخ 77
- تغيير بسيط 83
- على المقهى 89
- سناب شوتس 95
- في دبي 123
- يهوذا 131
- زير النساء 137

أوراق للنشر والتوزيع
awraaq@live.com